نوابغ الفكر العربي

٣٢



بقلم عبد الرءوف مخلوف



دار المعارف

ابن رشيق القيرواني

نوابغ الفكر العربي

٣٢

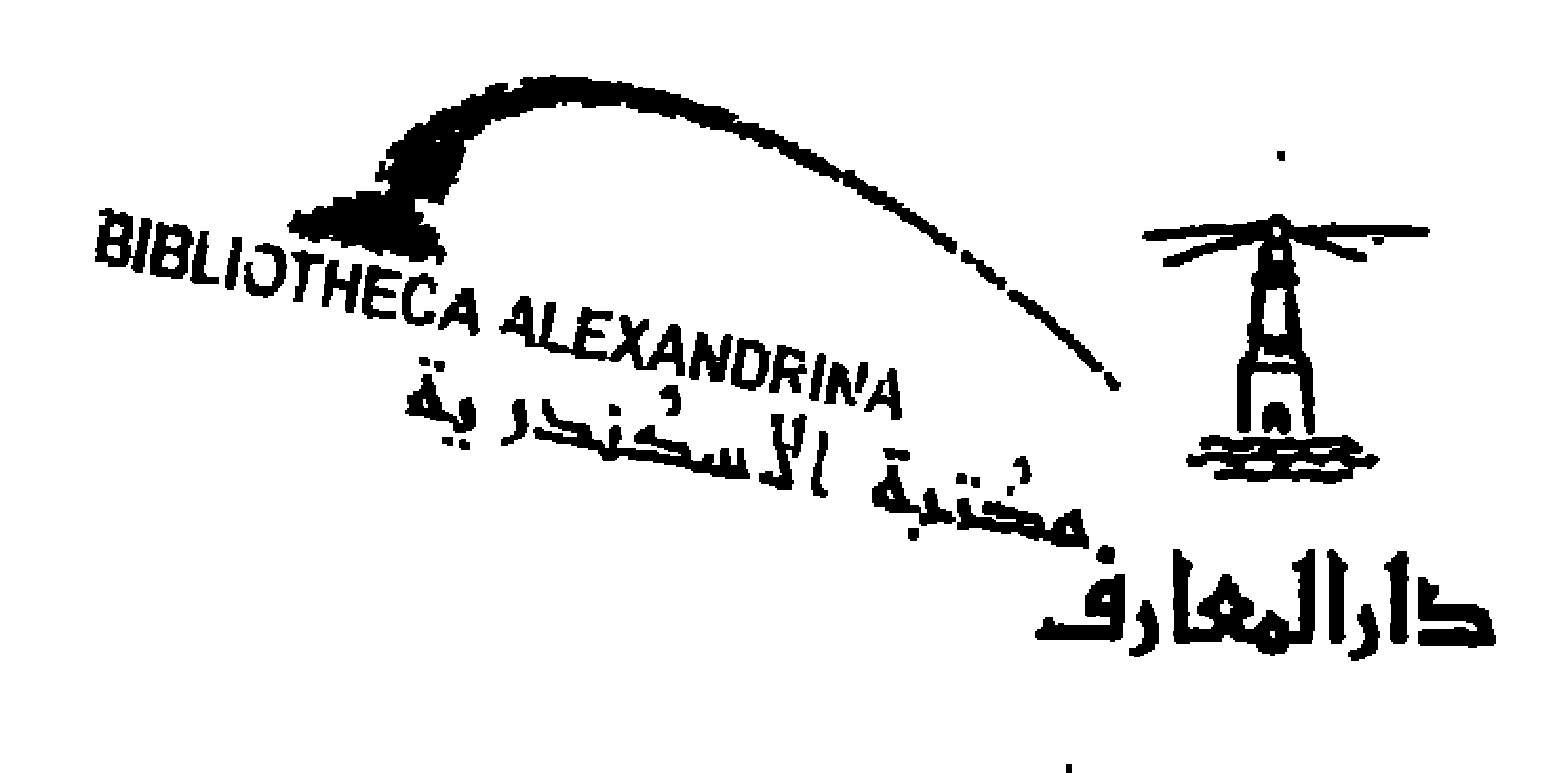
ابن رشيق القيرواني

بقلم عبد الرءوف مخلوف

« . . . ما كان بإفريقية من مشاهير
الشعراء إلا ابن رشيق القيرواني وابن شرف »

(من رسالة لإبراهيم بن
الرقيق إلى أحد أصحابه)

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عصر ابن رشيق

١ – شخصية المغرب العلمية والأدبية

١ – لما كان ابن رشيق القيروانى مغربى النشأة والمربى – كما سنذكره بعد – لزم أن نعرض فى إيجاز للمغرب ، ونبين ما كان عليه أهله من حيث الدراسات الأدبية والنقدية وهى التى برز فيها صاحبنا ، ونقارنهم بالمشارقة.

ونعنى بالمغرب شمال إفريقية والأندلس – وكلاهما غرب فى الاصطلاح يومذاك . وموجز الرأى فى أمر المشرق والمغرب « إنه لم تضع حدود الإقاليم حواجز وفواصل فى سبيل العلماء والأدباء والكتاب والشعراء، فالقالى (٢٨٨هـ – ٣٥٦هـ) الذى نشأ فى أرمينية وتأدب ببغداد علم وأنتج فى أسبانيا » « وحياة المتنبى كان مجالها بين العراق وسورية ومصر وفارس . وهذا يبين إلى أى مدى تشابهت إذ ذاك فى جميع البلدان نظم الحياة الأدبية وشروطها »[٢]

فإذا نظرنا إلى المغرب فى ضوء هذه الحقيقة رأينا له من وضعه الجغرافى ، بين العرب المستقرين فى موطنهم الأصلى حيث المشرق ، وبين العرب النازحين إلى موطنهم الجديد حيث الأندلس ، مكاناً آخر ، ذلك أنه صار لهذا الموضع الطبعى محط جميع العلماء والأدباء .

فالراحلون من المشرق إلى الأندلس ، والآيبون من الأندلس إلى المشرق يمرون بالمغرب . بل كثير من هؤلاء وأولئك حطوا رحالهم فى القيروان ، مدينته الكبرى قبل ابن رشيق وإلى أيامه ، مدينة العلم والأدب وبغداد المغرب .

---

(١) العربية ليوهان فك ص ١٦٨ .   (٢) العربية ليوهان فك ص ١٦٩ .

فهذا أبو الفضل عبد الواحد الدارى البغدادى يقدُم رسولا من قبل القائم بأمر الله العباسى ، إلى المعز بن باديس أمير المغرب وحاكمه ، فى مهمة تتعلق بشئون الحكم والسياسة ، فتحلو له القيروان ويقيم بها ، وينتظم فى سلك رجال المعز الأدباء ، ثم لا يعود إلى بغداده .

وهؤلاء هم شعراء الأندلس ينزحون من أندلسهم ليستقروا فى رحاب ذلك الأمير الذى يبذل فى تكريم الشعراء ما لا يكاد العقل يصدقه فيكون من وراء ذلك كله أدب جم وعلم غزير .

٢

ومع إيمانى بتأثير البيئة فى إنتاج الأديب من شعر ونثر ، فإنى أرى أن ذلك التأثير لا يتضح فى العلوم التى يستوى أمامها الناس ، والتى لا تختلف كثيراً باختلاف البيئات والأزمان ، وإنما يتضح فى الفنون إذ هذه تنطبع فيها فوق شخصية الفنى صورة المكان والزمان بخواصهما .

وابن رشيق وإن يكن شاعراً فهو عالم حين يخوض فى حديث النقد والأدب ، وسنرى بعد إلى أى حد نضحت فى إنتاجه بيئته وعصره .

ثم علماء المغرب وأدباؤه كانوا ينظرون إلى المشرق ورجاله على أنهم الأب الروحى لهم ، وتقضى سنن الطبيعة وقوانينها المقررة بأن « الأدنى يأخذ عن الأعلى »[1] فلا عجب أن يتمنى المغربيون لو كان فى المشرق مقرهم ومطلعهم . وهذا أبو محمد على بن سعيد بن حزم (٤٥٦هـ) يبكى حظه أن كان غربيًّا أندلسيًّا فيقول :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة	ولكن عيبى أن مطلعىَ الغربُ
ولو أننى من جانب الشرق طالع	لجد على ما ضاع من ذكرىَ النهبُ

(١) تيارات أدبية ص ١٢٥ – ١٢٧ .

ولى نحو أكناف العراق صبابة ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب[١]

وما يصدر هذا الشعر إلا عمن يكون الشرق فى نظره ، وفى واقع الأمر ، أثبت شأناً وأرسخ قدماً فى العلوم والفنون والآداب .

٣

« وكان لا يظهر كتاب علم أو ديوان شعر لنابغة من نوابغ العرب فى الشرق إلا تهاداه أكابر الأندلس وعلماؤه ، واستنسخوه وتداولوه »[٢]

يقول الدكتور أحمد ضيف — رحمه الله . « وجدنا ظاهرة التقليد للمشرق واضحة جلية ، إذ تصاغ الكتب الأدبية على يد الأندلسيين على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة ، ويصاغ العقد الفريد على شكل عيون الأخبار ؛ ويراه الصاحب بن عباد فيقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا »[٣]

ويقول ابن خلدون «وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن — يريد البيان — أقدر من المغاربة »[٤]

ويقول ابن بسام : « إن أهل هذا الأفق — يريد الأندلس — أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذ صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً . »[٥]

ويزيد على ذلك ما يكشف عن رغبة أهل المغرب فى مجاراة أهل المشرق أو الزيادة عليهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا فيقول : « فغاظنى منهم ذلك ،

---

(١) المعجب ص ٤٨ .

(٢) منهل الوراد حـ ٣ ص ١٨٣ .

(٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٢٠١ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٦٤٦ .

(٥) الذخيرة — القسم الأول مجلد ١ ص ٢ .

وأنفت مما هنالك ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، واختص أهل المشرق بالإحسان [١]

والأمر قريب من هذا فى الحياة السياسية فالناصر يلقب نفسه بالخليفة ، وأمراء الطوائف يلقبون أنفسهم بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد حتى يقول ابن شرف :

مما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد [٢]

وهكذا كان احتفاء المغاربة بالمشارقة وإكبارهم لهم كإكبار بعض المشارقة اليوم لأهل الغرب ، حتى لكان همّ أحدهم أن يقال عنه إنه يشبه أحد رجال المشرق . يقول الثعالبى فى حديثه عن ابن دراج « كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام »[٣]

وقد كانت الكتب التى تؤلف فى الشرق تنقل إلى الغرب بمجرد أن يبيعها أصحابها . يقول صاحب معجم الأدباء : « ولعل من الغريب أن يعرف القارئ أن كتابى البيان والتبين ، والتربيع والتدوير ، نقلا فى حياة الجاحظ إلى الأندلس »[٤]

ولا مانع عندى من القول بأنه كانت هناك بعثات تفد من المغرب على المشرق ، وليس الأمر أمر فرد ، ولكنه أمر جماعات ، جاءت إلى المشرق تنهل من موارده ، وتأخذ عن علمائه ، ويكفى لصحة ذلك وتأكيده أن يعقد ياقوت الباب الخامس من كتابه معجم الأدباء « فى التعريف ببعض من رحل

---

(١) المصدر السابق — الصفحة نفسها .
(٢) أبو الفدا تحت حوادث سنة ٣٥٠ هـ .
(٣) اليتيمة جـ ٢ ص ٩٠ .
(٤) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٧٦ .

إلى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام ، ومدح جماعة من أولئك الأعلام ، لشامة وجنة الأرض دمشق الشام — ويقول — اعلم أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب ، ولو أطلقنا عنان الأقلام لطال الكتاب وكثر الكلام . . . »[1]

ومع أن ياقوتاً لا يطلق للكلام العنان ، فإن حديثه عن هؤلاء المبعوثين يستغرق الجزء السادس والجزء السابع من الكتاب — ولا غرابة فى أن يتجه الفرع إلى أصله ، ويعاود الطير الحنين إلى دوحه .

٤

وبعد فمن المفروض ، إلى أن يتم التحقيق ، أن ابن رشيق لم يختلف عن أهل عصره ، ولم يخرج على قوانين الحياة ، وأن يكون تأثر بالمشارقة فى تناوله الأدب ناقداً ومؤرخاً وبلاغيًّا ؛ ويكون هو نفسه بذلك دليلا على أن المعارف الإنسانية تتشابه إلى حد كبير برغم اختلاف البيئات ، ودليلا كذلك على أن اللغة حين تسود فى جهات كثيرة لا تختلف فى قواعدها وقوانينها وإن اختلفت فى لهجاتها وموضوعاتها ، لا سيما إذا كانت تعتصم من ذلك الاختلاف بكتاب مقدس تدور حوله ، ومعقل حصين تأوى إليه . واللغة العربية من هذا القبيل ، فهى مرتبطة بالقرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذى لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إنه كان الملهم لكثير من البحوث اللغوية على اختلاف مناحيها ، وكان هم العلماء المحافظة على سلامته ببيان طرق استعمال لغته ورسم قواعدها ، وحد حدودها ، وتوضيح « المقتضيات التى يتطلبها مبدأ (تنقية اللغة)[2] » وقل أن تجد كتاباً فى علم من هذه العلوم — علوم اللغة — لم يتشفع مؤلفه إلى القراء فيه بمقدمة

---

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٥ .

(٢) العربية — يوهان فك ص ٩٠ .

يوضح فيها ما لذلك العلم من العلاقة بالدين » [١] كأنما وضعت المعارف اللغوية جميعها لخدمة الدين .

٥

والمتتبع لابن رشيق فى آثاره يرى أنه كثير النقل عن المشارقة، بل ليست مصادره فى جملتها إلا ما قرأه من مؤلفاتهم ، ولا يكون هذا إلا عن إيمان منه بفضلهم ، وعرفان لمزيتهم ، بل إنه ليصرح بذلك حين يقول : « إلا أن للمشرق فضيلة ومزية » [٢] وذلك عند حديثه عن مواردته لأبى الحسن التهامى وتصريحه بأنه سبقه .

٦

وخلاصة فكرتنا أن الأدب العربى حين احتل الأقاليم الإسلامية كان يؤثر فى ثقافتها أكثر مما يتأثر هو بها . وكان يفرض نفسه على هذه الأقاليم بسبب مقوماته التى اشتقها من الدين ومن السياسة ومن الفنية ، فبقيت صورته الفصحى غالبة ، موحدة على العموم ، وهذا التوحيد حفظ عليه وحدة القالب وتقارب الفكرة وتوافق المنهج إلى حد كبير .

أما الإقليمية المحلية فيمكن أن نراها فى الأدب الشعبى ، فى لغته العامية ، وفى خصائصه المتباينة . ولذلك مواضعه من البسط والتوضيح فى غير هذا البحث

ب ـــ الحالة السياسية :

نشأ ابن رشيق فى المغرب الأدنى ثم انتقل آخر حياته إلى صقلية تلك الجزيرة الواقعة فى البحر الأبيض المتوسط على ما سنذكره مفصلا بعد ، ولما

---

(١) منهل الوراد جـ ٢ ص ١١٧ .

(٢) قراضة الذهب ص ٥٠ .

كان للبيئة على ما قدمت الأثر الكبير فى شخصية الفرد لا سيما إذا كان شاعراً أو ناقداً فمن الحتم التعرض للحالة السياسية ، ومن مدن هذا الجزء فى القديم تونس[١] . والقيروان ، والمحمدية وهى المسيلة ، وصبرة ، إلى غير ذلك من المدن التى نجد أسماءها فى معاجم البلدان القديمة ولا يزال بعضها قائماً إلى اليوم . وقد بقيت تونس بعد الفتح الإسلامى تابعة فى إدارتها لولاة مصر إلى أن كان منتصف الدولة الأموية تقريباً فانفصلت عنها ، فلما كان عصر الرشيد تولى عليها ابراهيم بن الأغلب وأورث هذا بنيه ولايتها من بعده فظلوا يتعاقبون عليها حتى انتزعها منهم الفواطم العبيديون سنة ٢٩٦هـ .

ولما استولى الفاطميون على مصر (٣٥٨هـ.) وبنوا القاهرة قاعدة لملكهم صارت تونس ولاية يتعاورها ولا تهم الذين يحكمون لحسابهم ، فولى المعز لدين الله الفاطمى عليها قبل مسيره إلى مصر بلكين بن زيرى سنة ٣٦١ هـ . فاتخذ هذا مدينة القيروان قاعدة لولايته .

وفى سنة ٣٧٣ هـ . مات بلكين الذى كان يعترف للفاطميين بالتبعية[٢] وخلفه فى الحكم ابنه المنصور الذى تولى سنة ٣٨٦ هـ. والذى قام فى مقامه ولده باديس[٣] .

وكان لباديس هذا حق تعيين العمال والولاة[٤] فى البلاد التى تخضع لحكمه ، فولى عمه حماد بن بلكين ناحية أشير إحدى مدائن المغرب الأوسط يومئذ . فأنشأ بها قلعة حصينة ، وأقام لنفسه ملكاً داخل ملك ابن أخيه يتمتع فيه بكثير من مظاهر الاستقلال برغم اعترافه له بالتبعية ، « وحماد هذا هو الذى أنشأ القلعة المعروفة » بقلعة حماد « بالقرب من بجاية وسكنها هو وخلفاؤه من بعده »[٥]

---

(١) كانت كلمة تونس تطلق ويراد بها شمال إفريقية – حقق ذلك سعادة حسن حسنى باشا وزير معارف تونس المعاصر وعضو المجمع اللغوى بمصر .

(٢) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٧٥ .

(٣) المصدر السابق حـ ٣ ص ٦ .

(٤) العمال جمع عامل وهو الحاكم والوالى .

(٥) تعليق بخط حسن باشا حسنى عبد الوهاب كاتب مقدمة رسالة ابن رشيق ونقد الشعر المؤلف

ومنذ تلك اللحظة أصبح فى المغرب فريقان : بنو حماد فى قلعتهم الحصينة بأشير ، وبنو باديس فى القيروان والمهدية .

وفى سنة ٤٠٦هـ توفى باديس وخلفه ابنه المعز[1] الذى أعلن انفصاله عن العبيديين واستقلاله بالمغرب ، إذ خلع طاعتهم ، وخطب للخليفة العباسى فى بغداد ، القائم بأمر الله، وكان ذلك فى سنة ٤٣٩هـ[2]. وقال لرسول المستنصر الفاطمى العبيدى حين وفد عليه : « قل لصاحبك إن لنا ملك إفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر »[3] . وكان ذلك بداية قيام فتن بين المعز وبين أبناء عمومته بنى حماد ، إذ خلعوا هم كذلك طاعته ، وأشعل نار الفتن العبيديون الناقمون من القاهرة بما أوحوا القبائل بنى هلال أن يغيروا على المعز تارة وعلى بنى عمومته تارة أخرى .

وهكذا ضعف الأخوان ، وأظهر المغيرون عليهم من الجرأة ما عجز المعز معه عن دفع غاراتهم على القيروان فأشار على أصحابه أن يرتحلوا إلى المهدية وكان عليها ولده تميم من سنة ٤٤٥هـ . أما هو فخرج إليها سنة ٤٤٩هـ .[4] واحتل الثوار القيروان ، وعاثوا فيها تخريباً وهدماً وإحراقاً على جارى عادات القبائل الهمجية .

ومن ثم لحقت القيروان نكبة عدت من أكبر ما نكبت به مدينة فى التاريخ الإسلامى « فاندكت بذلك معالم مدينة من أزهى وأزهر مدنيات هذه البلاد ، وفى ذلك يقول شاعر بلاط المعز ، الحسن بن رشيق :

حسنتْ فلما إذ تكامل حسنها ... وسما إليها كل طرف دان
وتجمعت فيها الفضائل كلها ... وغدت محل الأمن والإيمان
نظرتْ لها الأيام نظرة كاشح ... ترنو بنظرة كاشح معيان

---

(١) الكامل لابن الأثير حـ ٩ ص ٩٤ تحت حوادث سنة ٤٠٦ .
(٢) صبح الأعشى حـ ٥ ص ١٢٤ .
(٣) المعجب ص ٢٠٤ .
(٤) الحلل السندسية ص ٢٣٩ .

حتى إذا الأقدار حم وقوعها ودنا القضاء لمدة وأوان
أهدت لها فتناً كليلٍ مظلمٍ وأرادها كالناطح العيدان
لو أن ثهلانا أصيب بعشرها لتدكدكت منها ذرا ثهلان(١)
حزنت لها كور العراق بأسرها وقرى الشآم ومصر والخرسان(٢)

وفى المهدية قضى المعز بقية حياته إلى أن مات سنة ٤٥٤ هـ . وحكم بعده ابنه تميم . وعُمّر فى الحكم طويلا إذ مات سنة ٥٠١هـ. وكان من خير الرجال حكماً وعقيلا وأدباً .

حـ ـ صقلية :

أما عن صقلية فقد فتحها المسلمون أيام حكم الأغالبة بأفريقية سنة ٢١٢هـ. وظلت تحت حكم المسلمين حتى نزح إليها من الأفريقيين جماعة فى إثر جماعة سنة ٣٩٥هـ . وكانت يومئذ تحت حكم جعفر بن يوسف بن عبد الله الكلبي ، فرحب بالنازحين أهلها ، « وأفسحوا لهم فى مكان العيش ، ويسروا لهم أسباب الارتزاق . »(٣)

وفى سنة سنة ٤١٧ هـ . قصد إليها ابنا المعز بن باديس : عبد الله وأيوب فاتحين . فقتلا حاكمها ودبرا الأمر فيها . بحكمة ، وفكرا فى غزو النرمان وأعدّا لذلك العدة ، وأمدّهم أبوهم بأسطول ضخم ، وبينما النفوس متطلعة إلى نصر مبين ، هبت عاصفة على الأسطول فأغرقته ، وأغرقت معه الآمال ، وكانت سبباً فى ضياع صقلية بعد ، وفى طمع الهلاليين فى ملك المعز بشمال إفريقية . كما اجترأ النرمان على الجزيرة ، وحاول أيوب ابن المعز أن يستردها منهم ، ولكن جماعة من المسلمين انضموا إلى النرمان فأفسدوا على أيوب تدبيره . وقرر وجوه القوم الانسحاب من الجزيرة إلى المهدية فركبوا إليها الأسطول حاملين

---

(١) ثهلان : اسم جبل .

(٢) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٨٢ .

(٣) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٨٢ .

معهم جميع من رأى الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم وأعيانهم وعامتهم ، وكان ذلك سنة ٤٦١ هـ . وبذلك خلا جو الجزيرة للنرمان فأطلقوا فيها أيديهم.

* * *

ذلك مجمل ما كانت عليه حالة العصر السياسية فى شمال أفريقية وفى صقلية أيام ابن رشيق ، وسنرى كيف كان الاطمئنان بالحياة فى القيروان ثم الاضطراب الذى أصابها وأصاب المنطقة كلها ، — كان — ذا تأثير فيه — وهكذا تعمل السياسة فى حياة العلماء والأدباء ، يتأثرون بها ، ولا يعتصمون منها فى الهدوء والاضطراب . . . .

* * *

د — الحالة الاجتماعية :

يمكن أن نقول إن حياة الناس فى هذه الفترة كانت تتلون بلون الحياة السياسية ، فإذا هدأت الفتن ، استقرت أمورهم وانصرفوا إلى معايشهم ، وأقبلوا على الإنشاء والتعمير . يقول صاحب « المسلمون فى جزيرة صقلية » عن المعز وعصره : « وكانت له مدنية من أجل وأروع ما رأته البلاد الإفريقية »[1] وتتجلى هذه المدنية فى أن كان للدولة نظام يضارع أحدث النظم فى عصرنا الحاضر ، فقد كانت هناك دواوين يقوم بالأمر فيها رجالات من أصحاب الثقافات الواسعة « وكانت الدواوين ثلاثة ؛ ديوان الجيش ، وديوان الجباية ، وديوان الرسائل » [2] « ويتلو الجباية ديوان المراسلات أو تحرير المكاتبات والصكوك الصادرة عن الأمير لمخاطبة عمال الجهات والولاة والقواد وغيرهم . وكان هذا الديوان فى دولة المعز منتصباً بمدينة صبرة — على نصف ميل من القيروان — بمقربة من منزل الملك ، وهو يحتوى على أكثر من مائة كاتب بليغ كابن رشيق وابن

---

(١) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٧٨ .

(٢) بساط العقيق فى تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٢٨ .

شرف ويرأسهم أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى . مربّى المعز بن باديس وكاتب سره . »[١]

أما حين اضطربت الأمور ، واندلعت نار الفتن فإن القوم اضطربوا فى معايشهم ، واختلت حياتهم ، ونطقت بهذا ألسنتهم . وهذا تميم بن المعز الخليفة يشكو ذلك الاضطراب وتلك الفتن وكيف تجعل العالى سافلا والسافل عالياً فيقول :

يا دهر ما أقساك من متلون فى حالتيك وما أقلك منصفاً
أتروح للنكس الجهول ممهراً وعلى اللبيب الحر سيفاً مرهفاً
وإذا صفوت كدرت ، شيمة باخل وإذا وفيت قطعت أسباب الوفا[٢]

ويقول يستنهض همم قومه ويستنفرهم للذود عن الحياض ورد المغير :

متى كانت دماؤكم تطلُّ أما فيكم بثأر مستقلُّ
ونمتم عن طلاب المجد حتى كأن العزم فيكم مضمحلُّ

فهذا الشعر ، مهما تكن مرتبته الفنية ، يصور لنا حياة القلق التى اعتورت البلاد فى هذه الفترة من حياة الدولة الصنهاجية أخريات أيام ابن رشيق .

هـ ــ الحالة العلمية والأدبية :

وهذه نقول فيها إن ضيق رقعة البلاد ، واعتزاز المعز بالحكم ، و زهوه بالاستقلال عن الفاطميين ، ورغبتهم فى أن يظهر أمامهم ــ وقد استقل عنهم وأصبحوا له أعداء ــ بمظهر الند ، إن لم يكن بمظهر المتفوق السبّاق ، ثم ما وهبه من حب للعلم وما جبل عليه من تعلق بالأدب وأريحية للأدباء ، نقول ، إن ذلك كله هيأ فرصة طيبة لحياة علمية وأدبية نامية حية فى هذه الفترة بتلك البلاد .

---

(١) بساط العقيق فى تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٣٢ .
(٢) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ٨٤ .
(٣) طل دمه : ذهب هدراً .

قال المراكشي « وكانت القيروان هذه فى قديم الزمان ، منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب ، دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم ، وقد ألف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ، ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء والمتبتلين ، كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطيبي »[١]

ويكفى فى التدليل على نهضة العلوم والآداب فى هذه المدينة أن يجد ابن رشيق — المترجم له — من شعرائها — دون غيرهم من رجالات اللغة والفقه والتفسير والحديث ، ومن أهل الزهد والتصوف إلى آخر من هنالك من رجالات العلم من يؤلفون مادة لكتاب خاص بهم هو « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » وبرغم « أن المكتبات العمومية قد خلت منه فيما يعلم الميمنى »[٢] فإنا نجد بين دفات الكتب — لا سيما كتب التراجم . نقولا منه كثيرة .

هذا عن الحركة العلمية فى القيروان ، ولذا لا نعجب أن يرثيها محمد بن أبي سعيد المعروف بابن شرف فيقول :

ترى سيئات القيروان تعاظمت ... فجلت عن الغفران والله غافر

تراها أصيبت بالكبائر وحدها ... ألم تك قِدْماً فى البلاد الكبائر ؟

* * *

أما عن المهدية « وبينها وبين القيروان مسيرة يومين »[٣] فإن لنا أن نسمع رأى أحد المؤرخين فيها وهو يقول : « وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهدية كما ازدان بالقيروان . فكان فيها بلاط فاخر ، التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم وأعلام الأدب وكبار الفلاسفة والشعراء .

وكانت أيام المهدية على صغر المملكة ، وتعاقب الحروب بينها وبين

(١) المعجب ص ٣٥٦ .
(٢) ابن رشيق للميمنى ص ٣١ .
(٣) مسالك الممالك ص ٣٦ .
(٤) بساط العقيق ص ٣٩ .

الملاليين أياماً مشهودة فى تاريخ الفن والعلم والأدب . .. وقصدها من كل ناحية أمثال فيلسوف الأندلس . . . وكان أمير المهدية ، تميم ، من خير الرجال عقلا وأدباً وحسن إدارة ، ومعرفة بأصول الأدب والشعر »[١]

وانتجع حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس ، منهم أبو إسحق ابن أبي خفاجة فى صباه ، وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوسى ، وأبو الحسن على بن عبد العزيز الحلبي المعروف بالفكيك ، وغيرهم . . وخدمه بالشعر من أهل إفريقية جماعة أيضاً . . ومدحه قبل هؤلاء شعراء المعز أبيه »[٢]

و « بالجملة فإن العلم ازدهر بإفريقية فى القرنين الرابع والخامس ازدهاراً لم يسبق مثله بسبب انتشار التعليم ، ومساعدة ولاة الأمر والوجهاء الذين كانوا يفرضونه على أولادهم ، ونسائهم ، وجواريهم ، وخدمهم عملا بأوامر الشريعة السمحاء »[٣]

* * *

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن قد كان للمكتبات والكتب فى ذلك العهد شأن كبير . يدل على ذلك أن المعز « أهدى مرة إلى أبي بكر عتيق السوسى تسعمائة مجلد من نفائس الكتب . أرسلها إليه على رءوس الحمالين عقب مجلس علمى ، استحسن فيه الأمير آراء ذلك الأديب »[٤] فإذا صح هذا الخبر أو قارب الصحة فما بالنا بمكتبة الأمير إذن ؟ قالوا وأهدت جدته ، وهى حاضنة باديس والده كتباً جميلة إلى المكتبة العامة التى كانت فى البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم . ومن بين هديتها مصحف بخطها على رق مزوق بالذهب . »[٥]

* * *

أما عن النشاط العلمى والأدبى فى صقلية فيكفى أن تعلم أن قد نبغ فيها

---

(١) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٨٤ .

(٢) المجموعة المغربية ص ٣٠٧ .

(٣) بساط العقيق ص ٣٨ .

(٤) بساط العقيق ص ٣٩ .

مؤرخون ومحدثون ولغويون ونحويون وفقهاء لهم فى الثقافة مكانتهم ، منهم ابن ظفر الصقلى المؤرخ الأديب المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . صاحب كتاب « أنباء نجباء الأبناء » وابن القطاع الأديب اللغوى المتوفى سنة ٥١٥ هـ. وابن حمديس الصقلى الشاعر الذى رحل منها فى ظروف سياسية أشرنا إليها وعاش فى كنف الأمير تميم بن المعز ، إلى غير هؤلاء ممن لا نطيل بذكرهم .

فى هذه البيئة العلمية الأدبية الصاخبة ، وبين جدران هذه المكتبات العامرة ، وفى بلاط المعز ، وتحت ظل ابن أبى الرجال نشأ ابن رشيق القيروانى وعاش حتى مات ، وهذا أوان أن نفصل القول فى حياته .

الفصل الثانى

ابن رشيق فى عصره

١ ــ نشأته وحياته : (٣٩٠ هـ ــ ٤٥٦ هـ)

وكلامنا فى هذا الفصل يشمل نشأته وأسرته وسلوكه فى حياته وصلاته بالناس إلى أن يفارق الحياة . وقد قضى ابن رشيق الجزء الأكبر من هذه الحياة ، والحافل بما خلد اسمه فى مدينة القيروان . تلك التى نزح إليها فى السادسة عشرة من عمره ، على الراجح ، حيث قصدها سنة ٤٠٦هـ . ولم يرم عنها إلا فى سنة ٤٤٩هـ . عندما غادرها المعز إلى المهدية وكان صاحبنا « ممن انحشر فى زمرته المحروبة » فيكون على هذا قد قضى فى القيروان ثلاثة وأربعين عاماً .

وبرغم طول هذه المدة ، وبرغم ما كان للرجل فيها من إنتاج كثير ومن مشاركة فى الحياة الأدبية ، فإن جانب حياته فى خاصة نفسه وأهله مما يكتنفه كثير من الغموض ، لأن الذين ترجموا له لم يتحدثوا فيه إلا لماماً .

٢ ــ أبوه

فالمصادر التى عرضت لابن رشيق ، وأقدمها فيما نعلم ــ الذخيرة لابن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ. لم تحمل إلينا شيئاً ذا بال عن والده إلا أن يكون اسمه وإلا أنه كان مولى من موالى الأزد[١] . والأزد قبيلة من قحطان هاجرت إلى المغرب فيمن هاجر من العرب الذين نزحوا عن جزيرتهم .

واسم والده على ما جاء فى هذه المصادر « رشيق » ويكاد إجماع الذين ترجموا له ينعقد على ذلك ، فكلهم يقول فى التعريف به هو « أبو على حسن

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٤ .

« ابن رشيق » فكنيته أبو على ، واسمه حسن ، واسم أبيه رشيق ، لا يشذ عن ذلك أحد إلا نسخة خطية فى مكتبة تيمور تحت رقم ٩٧٩ أدب تذكر فى عنوانها أنه « أبو على حسن بن على بن رشيق » فهى تجعل اسم والده « عليًّا » وليس مثل ذلك لغيرها من المخطوطات ، ولا فى التراجمات ، إلا ما جاء فى ترجمة يوسف اليان سركيس فقد ذكره على أنه « أبو على الحسن بن على بن رشيق »

ولما كانت مخطوطة تيمور متأخرة عن مخطوطة أخرى بدار الكتب — سأثبت بعد ، أنها أصح النسخ وأجدرها بالأخذ عنها — وكان أبوه فيها (رشيقاً) وليس عليًّا ، وكان الذين ترجموا له — ما عدا سركيس على هذا ، فإنى أرد ما جاء فى التيمورية وفى الترجمة المتأخرة لسركيس، وأقرر أن اسم والده هو رشيق .

قالوا وكان أبوه صائغاً علم ابنه صنعته فى المسيلة ، ولكن الابن نزع إلى الأدب فنزح إلى القيروان . وكأنى بصنعة الوالد قد نضجت فى أسلوب الولد حين سمى كتابه فى نقد أشعار العرب « قراضة الذهب » على ما سنذكره .

وكان ابن رشيق راضياً عن أبيه يفاخر به أنداده الذين عيّروه أنه ليس من سادات العرب ولا من العرب أنفسهم فقال لهم :

أما أبى فرشيق لست أنكره قل لى أبوك وصوّره من الخشب

وقال « ما أبغى به أباً ، ولا أرضى بمذهبه مذهباً، رضيت به روميًّا لا دعيًّا ولا بدعيًّا » وهو فى هذا كله يعرض بابن شرف القيروانى الشاعر الذى عاصره ، والذى قالوا عنه إن « شرفاً » اسم لوالدته ، وليس علماً على أبيه لأنه كان مجهول النسب .

٣ — شركاؤه فى الاسم

« وابن رشيق » عَلَمٌ على غير صاحبنا ، فهناك عبد الرحمن بن رشيق

---

(١) معجم المطبوعات العربية والعبرية جـ ١ ص ١١٠ .

الأندلسى الذى احتفل بالمعتمد بن عباد أحد ملوك اشبيلية من الطوائف ؛ وقد استضافه ابن رشيق على أنه سيده ثم لم يلبث أن جاهره بالعداء ولم يسع المعتمد إلا أن يرضى منه بضريبة يؤديها إليه مسانهة ، وبخيل بجهزها له عند الحاجة . وأخيراً حينما أتيحت الفرصة ليوسف بن تاشفين ، استدعى ابن رشيق هذا وحاكمه ، ثم أمر به فأسلم إلى المعتمد بن عباد : « فنقل ابن رشيق إلى إشبيلية وبقى فيها إلى أن دخلها الملثمون على ابن عباد فخرج من ثقافة »[1]

وهناك أحمد بن رشيق الأندلسى أيضاً ، ترجم له ياقوت فى صفحتين من معجمه[2]

٤ ـ ولادته

يختلف المؤرخون وأصحاب الطبقات ممن عرض للحديث عن ابن رشيق اختلافاً كبيراً فى مكان ولادته ، كما يختلفون فى سنّها ، وسنذكر ما وقفنا عليه من ذلك كله لنرجح منه ما نرى أن الأدلة تساندنا فى ترجيحه .

ففيما يتعلق بالمكان نرى ابن بسام (٥٤٢هـ) يقول فى الذخيرة : « فصل فى ذكر الأديب الكامل أبى على ابن رشيق المسيلى »[3] وهكذا يطالعنا أول ما يطالعنا بنسبة الرجل إلى المسيلة ، ثم يقول : بلغنى أنه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست واربعمائة[4]

وابن فضل الله العمرى يقول مثل ذلك[5] ويصرح بأنه نقل عن ابن بسام. ونرى القفطى (٦٣٨هـ.) يقول « الحسن بن رشيق القيروانى ، الفاضل الأديب ،

---

(١) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٢) معجم الأدباء ح ٣ ص ٣٤ .

(٣) القسم الرابع من الذخيرة — مصور عن مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦ ص ١٧٢ .

(٤) القسم الرابع من الذخيرة — مصور عن مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦ ص ١٧٢ .

(٥) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ج ١ ص ٢٧٧ .

الجليل القدر ، المصنف كتاب العمدة ، وجدت له ما صورته هو الحسن بن رشيق الإفريقي المعروف بالقيرواني من أهل مدينة من مدن إفريقية تعرف بالمحمدية ، وأبوه رشيق مملوك رومي لرجل من أهل المحمدية من الأزد »[١]

ثم يقول « ولد الحسن بن رشيق بالمحمدية ونشأ بها وعلمه أبوه صنعته وهي الصياغة ، وقرأ الأدب بالمحمدية ، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم ، واشتاقت نفسه إلى التزيد من ذلك وملاقاة أهل الأدب ، فرحل إلى القيروان وعمره ستة عشرة سنة — كذا — وامتدح بها واشتهر بجودة الخاطر »[٢].

ويقول صاحب معجم الأدباء إن ابن رشيق قال في آخر كتابه الأنموذج عن نفسه :

« صاحب الكتاب هو حسن بن رشيق ، مولى من موالي الأزد ، ولد بالمحمدية سنة ٣٩٠ هـ. ، وتأدب بها يسيراً وقدم إلى الحضرة سنة (٤٠٦هـ.) وامتدح سيدنا خلد الله دولته »[٣]

ويقول ابن خلكان عن ابن بسام إنه قال « بلغني أنه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ثم ارتحل إلى القيروان سنة ٤٠٦هـ ، ثم يقول : وقال غيره ولد بالمهدية سنة ٣٩٠هـ[٤] .

وهكذا نجد رأيين في بلده الأول ، فرأي أنه المحمدية ، ورأي أنه المهدية ، فإذا علمنا أن « المسيلة هي المحمدية والمحمدية من أعمال برقة من ناحية الإسكندرية[٥] ورأينا ابن بسام أقدم من أرخ له بنسبه إليها في عنوان ترجمته له فيقول « على ابن رشيق المسيلي » وأن القفطي جعله : « الحسين ابن رشيق الإفريقي المعروف بالقيرواني ، ثم صرح بأن المحمدية مولده ، وأن ياقوتاً يذكر أن ابن رشيق

---

(١) انباه الرواة على انباه النحاة جـ ١ ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٧ .

(٣) معجم الأدباء جـ ١ ص ١١٢ .

(٤) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٤ .

(٥) معجم البلدان جـ ٧ ص ٣٩٨ .

قال عن نفسه فى آخر أنموذجه » . . إنه ولد بالمحمدية « وأن ابن خلكان ينقل مثل ذلك ، — إذا رأينا ذلك كله — كان لنا أن نرد تلك الرواية التى انفردت بجعل ميلاده المهدية ، لأن صاحبها لم يذكر لنا مصدرها ، ولأنها تخالف مجموعة الروايات التى تقرر أن ميلاده كان فى المحمدية . ويتبع ذلك أن نرد رواية المرحوم عبد الله عفيفى التى تقول » فى العهد الذى ظهر فيه كتاب الوساطة ، ظهر كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى المولود بالمهدية من أعمال تونس «(١) ونشير هنا إلى أن هذه العبارة مردودة فى جملتها ، فلا ابن رشيق ولد فى المهدية ، ولا العمده ظهر فى العهد الذى ظهر فيه كتاب الوساطة ، وإنما الحقيقة أنه ظهر بعده بأكثر من خمسين عاماً .

ويؤكد ما ذهبت إليه أن ابن فضل الله العمرى جعله » المسيلى « ولا يكون ذلك النسب إلا بالميلاد كما قال الميمنى (٢)

ويؤكد ذلك كله قول ابن رشيق عن نفسه فى » قراضة الذهب « عند الحديث عن العكس : » وقد جمعت الصفتين فى صباى جميعاً ، وكان يعجب أبا اسحق الحصرى ، وما كنت حينئذ سمعت ما قال ابن الأعرابى ، فقلت فى وادى المحمدية :

تحكى غواربه غوارب بزّلٍ جاءت بغير قوادم وهوادى «(٣)

فيبدو من هذا النص أنه كان صبياً حين قال هذا الشعر ، وأنه كان يصف به وادى المحمدية ؛ أفلا يحق لنا بعد أن نستنتج أنه كان يصف ذلك الوادى الذى نشأ فى أحضانه ؟ والذين قالوا بولادته فى المهدية لم يذكروا لنا أنه انتقل منها إلى المحمدية حتى يصف واديها .

واخيراً نرى فى كتاب » رايات المبرزين وغايات المميزين المنتقى من كتاب

---

(١) زهرات منثورة فى الأدب العربى ص ١١ .

(٢) ابن رشيق للميمنى ص ٣٤ .

(٣) قراضة الذهب ص ٣٠٧ — البزل : جمع بازل : البعير الذى طلعت أنيابه .

المغرب فى شعراء أهل المغرب » تحت عنوان علماء الأدب ، المائة الخامسة قول صاحبه : « الرئيس العالم الفاضل أبو على الحسن بن رشيق ، صاحب كتاب العمدة والأنموذج ، مولده بالمسالة وظهوره واشتهاره بالقيروان »(١)

ويرجح ذلك أن يرثى ابن رشيق قاضى المحمدية طاهر بن عبدالله وقد بلغته وفاته ، بقصيدة يقول فيها :

العَفْرُ فى فم ذاك الصارخ الناعى ... ولا أجيبتْ بخيرٍ دعوةُ الداعى
فقد نعى ملء أفواهٍ وأفئدةٍ ... وقد نعى ملء أبصار وأسماع
أما لئن صح ما جاء البريدُ به ... ليَكْثُرُنْ من الباكين أشياعى
يا شؤم طائرِ أخبارٍ مبرّحة ... يطيرُ قلبى لها من بين أضلاعى
ما زلت أفزع من يأس إلى طمع ... حتى تربع يأسى فوق أطماعى
فاليوم أنفق كنز العمر أجمعَهُ ... لما مضى واحدُ الدنيا بإجماع
تُوفى الطاهرُ القاضى فوا أسفا ... إن لم يؤس تباريحى وأوجاعى
فللديانة فيه لبسُ ثاكلةٍ ... وللقضاء عليه قلب ملتاع

فأولى بهذا الرثاء أن يكون وفاء لأبناء بلدة ابن رشيق ، وبرًّا منه بمسقط رأسه ، المحمدية .(٢)

والخلاف فى سنة ولادته لا يقل عنه فى مكانها فقال الميمنى إنه ولد سنة ٣٩٠ هـ. اعتماداً على ما قرره ابن رشيق عن نفسه فى آخر كتابه الأنموذج ، وقد سبقت الرواية .

وقال حسن حسنى باشا صاحب بساط العقيق : بل ولد سنة ٣٨٥ هـ وحجته أن الرواة قالوا إن ابن رشيق مات عن اثنتين وسبعين سنة وهو فى رأيه مات سنة ٤٥٦ هـ. فليكن مولده عنده سنة ٣٨٥ هـ. حتى تصح رواية الرواة

---

(١) مخطوط بمكتبة الأزهر ص ٢٥ .
(٢) إنباء الرواة على أنباه النحاة ص ٢٨٢ .

فى عدد سنى حياة الرجل قال : « وهذا استنتاج أولى بالأخذ به من رواية الرجل نفسه »[1]

وأغرب من هذا الرأى رواية القفطى التى تقول « ولد الحسن بن رشيق بالمحمدية فى شهور سنة سبعين وثلثمائة »[2] وعندى أن هذه الرواية من خطأ النساخ ، وأن أصلها « تسعين » فكتبوها « سبعين » يؤيد ذلك أن القفطى نفسه يقول بعدها عن ابن رشيق « وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم واشتاقت نفسه إلى التزيد من ذلك فرحل إلى القيروان وعمره ست عشرة سنة — كذا — وامتدح صاحب القيروان ابن باديس »[3] ونحن نعلم علم اليقين من غير هذا المصدر أنه ارتحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ هـ . وعمره يومئذ ست عشرة سنة ، ولا يكون هذا إلا وميلاده كان فى سنة ٣٩٠ هـ.

وإذا كنت قد رجحت رواية ابن رشيق نفسه عن نفسه فيما يتعلق بمكان ولادته لما ساندها من أدلة ، فإنى أرجحها أيضاً فيما يتعلق بسنة الميلاد على الاستنتاج الذى ذهب إليه صاحب كتاب بساط العقيق ، لأن صدق الرواية أو رجحانها فى شطر منها يدعو إلى ترجيح صدقها فى شطرها الباقى مالم يقم دليل على غير ذلك .

أما اعتماد صاحب البساط على « أنه لا يعقل أن يكون ابن رشيق قد اجتمع ببعض الشعراء سنة ٤٠١ هـ لأن سنه يومئذ لم تكن جاوزت الحادية عشرة فيمكن الرد عليه بأن النبوغ لا سن له ، والشذوذ عن المألوف هو الأصل فى حياة النابهين — وابن رشيق منهم — وفى التاريخ أمثلة كثيرة لذلك ؛ فهذا صاحب معجم الأدباء يذكر أن عبد الله الأزدى الحميدى الحافظ المؤرخ

---

(١) بساط العقيق ص ٣٢ .

(٢) إنباه الرواة على إنباه النحاة ص ٢٧٧ .

(٣) إنباه الرواة على إنباه النحاة ص ٢٧٧ .

الأديب كان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥ هـ وعمره خمس سنوات »[1] وقريب من ذلك ما حكى عن جار الله الزمخشرى .

ونخلص من هذه الروايات إلى أن ابن رشيق ولد فى سنة ٣٩٠ هـ . وليس سنة ٣٧٠هـ . ولاسنة ٣٨٥هـ .

٥ ـــ أسرته

والحديث فى هذا الجانب من حياة ابن رشيق يكتنفه غموض كبير ، ذلك أن أحداً من الذين عرضوا لسيرة الرجل لم يتعرض لهذه الناحية بالتجلية ، بله بمجرد الذكر فى قليل أو كثير .

غير أنى برغم ذلك وقفت على أبيات له فى الذخيرة ، استنتجت منها أنه بنى أسرّه ، وأنه ولد له ، فقد رفع إلى المعز ولى نعمته أبياتاً من شعره فى أعقاب ولادة وقعت عنده وكانت المولودة بنتاً فقال :

معز الهدى لا زال عزك دانياً ... وزيّنت الدنيا لنا بحياتكا
أتتنىَ أنثى يعلم الله أننى ... سررت بها إذ أمها من هباتكا
وقد كنت أرجو أنها ذو بلاغة ... يقوم مقامى عن بديع صلاتكا[2]
وما نحن إلا نبت جودك كلنا ... وكل نبات الأرض من بركاتكا

وإذا كان على الباحث أن يستوحى النصوص فإن هذا النص ينبئنا بأن المعز زوج ابن رشيق أحدى جواريه ، أو أن ابن رشيق تزوج وكان صداق زواجه من هبات المعز وبعض صلاته . وأن الرجل على الرغم من تصريحه بسروره إذ أتته الوليدة أنثى ، فإنه كان يود ويتمنى على الله لو أنها كانت غلاماً تكون له بلاغة أبيه فيقوم مقامه من المعز فى شكره والتغنى بأياديه ونعمته عليه .

وهكذا يكون ابن رشيق قد اتسعت حياته لبناء أسرة يكون فيها زوجاً له

---

(١) معجم الأدباء جـ ٠ ص ٢٨٣ .

(٢) الذخيرة — القسم الرابع مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦ ص ١٧٧ .

أبناء إلى جنب ما كان له من عبث ومجون سنرى طرفاً منه .

غير أنا نعجب لابن رشيق فإنه — وهو الشاعر المرهف الحس — لا يجرى لسانه ولا ينطق شعره كثيراً بعاطفة الأبوة ولا نجد صدى الأسرة واضحاً فيما خلف من تراث أدبى ، وكأنه لم يعان من تبعات الأبناء ومسراتهم فبينا نراه يقول :

إذا ما خففتُ كعهد الصبا   أبت ذلك الخمسُ والأربعونا
وما ثقلَتْ كِبراً وطأتى   ولكن أجرّ ورائى السنينا

أو يقول :

وقائلة ماذا الشحوب وذا الضنى   فقلت لها قول المشوق المتيّم
هواك أتانى وهو طيف أعِزّهُ   فاطعمتُه لحمى وأسقيته دمى

بينا يقول ذلك . ومثله كثير ، لا نرى صدى الأسرة ولا رجع الأبناء . ولا أمل الوالد ، اللهم إلا فى الأبيات المتقدمة ، وكنا ننتظر منه شعراً كثيراً يتحدث فيه عن أسرته ؛ ولكن لعله يكون فعل وأنشأ شعراً ضاع فى غمار ما ضاع له من آثار .

٦ — وظائفه وأسباب حياته :

كان حتما أن يكون لابن رشيق مرتزق يعيش منه ، وإذا كان والده قد كفله فى صغره فإنا نتصور بعد أن انتقل إلى القيروان واتصل بأميرها المعز بن باديس أن يكون الأمير قد فرض له فى بيت مال الدولة رزقاً ؛ ولم لا وهو يقصده منذ خرج من بلده الأول ، المحمدية ، لا يقصد سواه ، والمعز كان يكبر الشعراء ليباهى ببلاطه وبمن يؤمه ، وهذا صاحبنا يقول[1]

وذيالٍ له رجلٌ طحون   لما نزلت به ويدٌ زجوج [2]

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٠٣ .

(٢) الذيال : الفرس والبيت كناية عن قوته وشدة وطئه الأرض وأنه يطحن حصاها وينثره بيديه

يطير بأربعٍ لا عيب فيها   لظهران الصفا منها عجيج[1]
خرجتُ به عن الأوهام سبقاً   وقلّ له عن الوهم الخروج
إلى الملك المعز أبى تميم   أمرّ بمن سواه فلا أعيج[2]

ثم ها هوذا يمدحه بعد، بقصائد من عيون شعره فيقول فيه من قصيدة :

ذمت لعينك أعين الغزلان   قمراً أقر لحسنه القمرانِ
ومشت ولا والله ما حقف النقا   مما أرتك ، ولا قضيب البان
وثن الملاحة غير أن ديانتى   تأبى علىّ عبادة الأوثان
يابن الأعزة من أكابر حِمْيَرٍ   وسلالة الأملاك من قحطان
من كل أبلج آمر بلسانه   يضع السيوف مواضع التيجان

ولما بدا أن المعز رضى عن شعره وتوسم فيه النبوع ، وقربه إليه ، ألحقه رئيس ديوان الإنشاء ، أبو الحسن على بن أبى الرجال — بأمر الأمير — بخدمة الديوان فأظهر من الكفاية ما حبب هذا فيه، فتوثقت الصلة بينه وبين أبى الحسن على ؛ حتى رفع إليه خير كتبه «كتاب العمدة[3]» ثم راح يثنى عليه كلما سنحت فرصة .

ويمكن أن نحدد وظيفة ابن رشيق فى الديوان فنقول إنه كان الكاتب المختص بأمور الجيش، وعمدتنا فى هذا بيت من الشعر قاله يتحدث به عن نفسه وهو قوله

وقد كنت كاتب جيش الأمير   ومجرى الأمور على رسمها

ويظهر أنه انقطع عن وظيفته لمطامع حدثته بها نفسه ولكن خاب فى بعاده عن الأمير فرجع إلى مولاه يعتذر من غيبته ويقول :

ولولا شقائى لم أغب عنك ساعة   ولا رام صرفى عن حياتك صارف
ولكننى أخطأت رشدى فلم أصب   وقد يخطئ الرشد الفتى وهو عارف

---

(١) ظهران الصفا : حصا الأرض والعجيج صوت حوافر الحصان عليه .

(٢) لا أعيج لا أميل وعليه قول الآخر :

تمرون الديار ولم تعوجوا   كلامكم على إذاً حرام

(٣) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٣٠٥.

على أنه بعد فتنة المعز وخراب القيروان ، نزح إلى المهدية وعاش سنين فى كنف تميم أميرها ، ولعله أن يكون قال فى هذه الفترة أبياته :

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا[1] ... عن البحر ، عن كف الأمير تميم

ولكن حياته فى كنف تميم لم تنسه حياة القيروان التى يبكيها بقصيدته الطويلة والتى يقول فيها :

أترى الليالى بعد ما صنعت بنا ... تقضى لنا بتواصل وتدان
وتعيد أرض القيروان كعهدها ... فيما مضى من سالف الأزمان
من بعد ما سلبت نضائر حسنها الأيا ... م واختلفت بها ميتان[2]
أمست وقد لعب الزمان بأهلها ... وتقطعت بهم عرى الأقران
فتفرقوا أيدى سبا وتشتتوا ... بعد اجتماعهم على الأوطان[3]

أما عن ابن رشيق فى صقلية فلا نعرف شيئاً عن حياته يستحق أن يذكر إلا أنه رثى المعز بن باديس لما بلغته فيها وفاته .

٧ — ولى نعمته

ولا نغادر هذا المقام حتى نقول فى صاحبه وولى نعمته القريب ابن أبى الرجال . فعن أمره وضع كثيراً من شعره — كما يقول هو — وإليه رفع كتابه العمدة ، وكان صاحبه ذلك ، رجلا شاعراً يروى له ابن رشيق كثيراً من الشعر فى مواطن كثيرة من العمدة ، فهو القائل .

باكر الراح ودع عنك العذلْ ... واسع فى الصحة من قبل العللْ

---

(١) الحيا : المطر .

(٢) هكذا الرواية .

(٣) سبأ وسبا : اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن . وفى المثل « تفرقوا أيدى سبا » ضرب بهم المثل فى التفرق لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جناتهم تبددوا فى البلاد فأخذت كل طائفة منهم طريقاً .

واغتنم لذة يوم زائل والمنايا ضاحكات بالأمل

وكأنما أشرب صاحبنا روح صاحبه فكان مرحاً فكهاً كما سنذكره بعد .

ومات ابن أبي الرجال هذا سنة ٤٢٥ هـ.

٨ – سلوك ابن رشيق

(ا) وأريد بها سلوكه العام فى حياته الاجتماعية والعلمية ، فأما عن الأولى فقد وضحت فيه صفات من أهمها ، أنه كان يؤثر السلام والمودة فلا يجرّ على نفسه عداوات الناس ، وإن اضطر إلى شيء من هذا اكتفى فى الانتصاف لنفسه بالتلميح دون التصريح ، وكثيراً ما كان ينعى على الشعراء اندفاعهم فى التصدى للحكام ، فيقول مثلا « وأحمق الشعراء عندى من أدخل نفسه فى هذا الباب – باب التعرض للحكام – وما للشاعر والتعرض للحتوف . . وإنما هو طالب فضل . . وكل شيء يحتمل إلا الطعن فى الدول فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة فتعصب المرء لمن هو فى ملكه وتحت سلطانه أصوب »[1]

ويقول : والشاعر أولى من كف منطقه وأقال عثرات اللسان »[2]

ويقول :

وأخرق أكال للحم صديقه وليس لجارى ريقه بمسيغ

سكت له ضناً بعرضى فلم أجب ورب جواب فى السكوت بليغ [3]

وكان فيه رضا بالقليل ، ورغبةٌ عن المجازفة ، قالوا : عرض عليه ابن شرف حين هاجر إلى صقلية أن ينزح معه إلى الأندلس فرفض وآثر المقام على الرحيل الذى يضطره لركوب بحر لا يدرى معه إلى أى غاية يسير ،وفى هذا المعنى يقول :

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٣) العمدة جـ ١ ص ٢١٥ .

يُعْطَى الفتى فينال فى دعــة ما لم ينل بالكدِّ والتعب
فاطلب لنفسك فضل راحتهــا إذ ليست الأشياء بالطلب(١)

(ب) وينم شعره عن ميل إلى الغلمان ، يعبث معهم ، ويتلهى بهم ، صنع أبي نواس ، على قصد هنا وإسراف هناك ، وقد أورد له صاحب البدائع أكثر من قصة فى هذا الباب ، فساق من ذلك فيما يقرب من صفحتين قصته مع صبي صائغ عبث به ، وبالغ فى وصفه ، ثم ختم القصة بشعره الذى يقول فيه :

وأسمرُ اللون عسْجَدِيّ يكادُ يستمطر الجهاما
ضاق بحمل العذار ذرْعــاً كالمهر لا يعرف اللجاما
ونكّس الرأس إذ رآنى كآبة واكتسى احتشاما
وظن أن العِذار ممــا يزيح عن قلبي الغراما
وما درى أنه نبات أنبت فى جسمى السّقاما
وهل ترى عارضَيْه إلا حمائلا حُمِّلت حساما(٢)

ولست أدرى ، أغلامه هذا هو الذى يقول عنه « كان كثيراً ما ينتابنى غلام وضيء الوجه ، ذو خال تحت لحيته ، فنظر إليه يوماً بعض أصحابى ، ثم أطرق ، فعلمت أنه يعمل فيه — شعراً — فصنعت بيتين وسكت عنهما خوف الوقوع دونه ، فلما رفع رأسه قال اسمع وأنشد :

يقولون لى من تحت صفحة خده تنزّلَ خالٌ كان مسكنه الخال

---

(١) يريد أنه كثيراً ما ينال المرء الامر من غير سعى والعكس بالعكس وهذا شبيه بقول ابن زيدون :

ما على ظنى باس يجرح الدهــر وياسو
ولــكم أجــدى قعود ولــكم أكدى التماس

(٢) بدائع البدائه ص ١٦٨ .

فقلت :

حبذا الخال كامناً منه بين الـ جيد والخدّ رِقْبةً وحذاراً

وأياما كان فللغلمان فى حياة ابن رشيق شأن يثير الريبة ، ويبعث على الشك فى سيرته معهم ، وكيف لا ومن شعره فيهم قوله :

إن زارنى يوماً على خلوة أو زرته فى موضع خال
كنت له . . . .

وقوله :

سأشكر للحمام بدءاً وعودة أيادى بيضا ما لهن ثمين
جلاك على عينىَّ عـــريان ... ...
وظهرّ قلبى من هواك ... ... [1]

إلى شعر أصرح لفظاً ، وأفحش معنى ، نمسك عن أن نذكره اكتفاء بالإشارة إليه .

٩ ـ الشراب فى حياة ابن رشيق :

ويظهر أن كان له ولوع بالشراب فما أكثر ما يتحدث عن الخمر ، وعن مجالسها وندمائها كأن يقول :

قم فاسقنى قهوة إذا انبعثت فى باخل جاد بالذى ملكه
كأن أيدى الرياح إذ بسطت فى متنه ، أظهرت لنا حبكه

ويكرر هذا المعنى فى موطن آخر فيقول :

غنى يامجوّد الخلق عندّى « حى نجداً ومن بأكناف نجد »
واسقنى ما يصير ذو البجل منها تمائماً ، والجبان عمرو بن معدى
فى زمان الشباب عاجلنى الشيـ ـب فهذا أوائل الدنّ دردى

---

(١) المصدر السابق .

١٠ ــ توبة وندم :

ويقول وقد تقدمت به العمر وكأنما يصحو من غفوته :

قرعت سنى على ما فاتنى ندما ... من الشباب. ومن باللهو لاشيب
فقد رددت كئوس الراح مترعة ... على السقاة وكانت جُل مشروبى
أنزه السمع والعينين فى نغم ... ومنظر عابث بالحسن والطيب
من كل لافظة بالدر باسمة ... عنه محلاة نوع غير مثقوب
أيام تصحبنى الغزلان آنسة ... هذا على أننى أعدى من الذيب

وناهيك باعترافه الصريح فى آخر هذه الأبيات بما كان عليه أيام الشباب .

١١ ــ دعابته :

وقد كانت فيه إلى جنب ذلك كله دعابة مستملحة لاتعدم معجباً بها ، فها هو ذا يقول فى نفسه ، وكان أحول ، وفى الطوسى الشاعر المعاصر له ، وكان أعمى ، وفى محمد بن شرف ، وكان أعور :

لا بد فى العور من تيه ومن صلف ... لأنهم يبصرون الناس أنصافاً
وكل أحول يلقى ذا مكارمة ... لأنهم ينظرون الناس أضعافاً
والعمى أولى بحال العور لو عرفوا ... على القياس ولكن خاف من خافا

ومع أن الشعر للدعابة فإنه ينم عن رأيه فى منافسة ابن شرف فقد رآه صاحب تيه وصلف وكبرياء . وكذلك كل دعابة تحمل شيئاً من عقيدة قائلها فيمن قيلت له .

ويقول فى البغل :

أوصيك بالبغل شرًّا ... فإنه ابن الحمار
لا يصلح البغل إلا ... للكد والأسفار

كالعبـــد إن لم تهنه جنى على الأحـــرار
ما اعتاض بغلا بطرف إلا أخو إدبـــار[١]

١٢ ـ تدينه :

ويشهد هذا كله بأن كانت فى الرجل رقة ، وفى دينه ضعف ، فهو لا يتحرج من الإثم ، ولا يمتنع من أن يصرح به فيقول فى بعض ما يقول :

إنى لقيت مشقة فابعث إلىّ بشقة
كمثل وجهك حسناً ومثل دينى رقة

وليس ذلك ببدع فى الشعراء فكثير منهم من هذا القبيل .

١٣ ـ خلقه العلمى وأمانته :

فإذا تركنا ذلك إلى خلقه العلمى ، رأينا منه أمانة وتواضعاً ، ينقل الرأى عن غيره فيصرح بذلك ويقول « وقد نقلت هذا الباب عن كتاب ابن المعتز إلا مالا خفاء به على أحد من أهل التمييز »[٢] وهل يبتغى العلماء أكثر من ذلك حين يطالبون الباحث والمؤلف بذكر المصدر والمرجع ونسبة الرأى إلى قائله ما لم يكن هو صاحبه ؟

وكان متواضعاً بعلمه لايتيه به ، ولا يُدِل بشعره ، ولا يسمو بنظره إلى فوق مرتبته ، وسيرد عليك حديث ما ناجته به نفسه من معارضة المتنبى ، وكيف كفها حين رأى أنه دون ما أرادت . واسمع إليه يقول : « وقد قلت أنا وإن لم أدخل فى جملة من تقدم ، ولا بلغت خطته » ويقول : « وقد صنعت على ضعف منى وتأخر وقتى »[٣] ويقول بعد أن يسوق كلاماً عن سعد بن مالك

---

(١) الطرف بكسر الطاء : الجواد .
(٢) العمدة جـ ٢ ص ٧٦ .
(٣) العمدة جـ ٢ ص ٢٢ .

ولا أدرى هل هو أبو بكر بن قميئة الشاعر ، والمرقش الأكبر أم لا »[١] ولا أدرى ، كما قالوا نصف العلم .

على أن هذا التواضع لم يمنعه أحياناً من أن يشهد لنفسه « بجودة الميز ، وفرط التثبيت ، والإنصاف إن شاء الله »[٢]

١٤ — معاصروه وأنداده :

لما كانت كلمة « المعاصر » تنصرف إلى واحد من ثلاثة : رجل أدركه ابن رشيق فأخذ عنه وسمع منه ، وجلس إليه هو مجلس المتعلم ، وهؤلاء هم شيوخه .

ورجل عاصره ولم يأخذ عنه شيئاً وإنما جمعت بينهما حرفة الأدب أو أو توافق السن ، أو وحدة المشرب ، أو قصر المعز ، وهؤلاء هم أنداده .

ورجل جعل من ابن رشيق شيخاً له يأخذ من علمه ، أو يروى من شعره وهؤلاء هم تلاميذه . أقول لما كان ذلك كذلك ، ولما كنت سأتحدث عن شيوخه عند الحديث عن مصادر ثقافته فإنا نتحدث هنا عن أنداده وتلاميذه .

وأنداده الذين ثقفوا بثقافته ، واشتركوا معه فى الأخذ أحياناً عن مشيخة واحدة ، وساجلوه أحياناً قرض الشعر ، وشاركوه فى تذوق الأدب ، أو ضمهم وإياه قصر المعز أكثر من أن نحصيهم عدداً ، لكن ذلك لا يحول بيننا وبين أن نتحدث عن نفر منهم .

فهذا أبو حديدة الشاعر . يقول عنه ابن رشيق فى أنموذجه : « اجتمعت بأبى حديدة الشاعر يوماً وأنا سكران فسألنى عن حال المكان الذى كنت فيه فوصفته ، وأفضت فى صفته إلى ذكر غلام كان ساقياً ، فقلت فى عرض الكلام ولم أرد الوزن :

---

(١) العمدة ج ١ ص ٧٠ .

(٢) العمدة ج ١ ص ١٥ .

فشربتهـــا من راحتيـــه كأنها من وجنتيـــه
وكأنهـــا في فعلهـــا تحكى الذى فى ناظريه

وقلت له أجز ، فقال :

وشممت وردة خـــده نظراً ونرجس مقلتيـــه

فقلت له أحسنت فى شمك بالنظر كما سمع أبو الطيب بالبصر حين قال
كالخط يملأ مسمعَىْ من أبصرا » (١)

وهذا خلف بن أحمد قال عنه أيضاً فى أنموذجه « شاعر مطبوع تأدب بإفريقية — وإفريقية يومئذ يراد بها تونس — وله شعر جيد ، مات بزويلة سنة ٤١٤هـ. ومن شعره :

هل الدهر يوماً بليلى يجـــودُ وأيامنا باللوى هل تعود(٢)

وأولئك هم أبو لقمان الصفار ، والدرْكادو ، وأحمد بن إبرهيم الكمونى ، كانت لهم معه مجالس يجتمعون فيها فيتطارحون الأشعار ، وفى بعض ذلك يقول ابن رشيق « جلست فى دكان أبى لقمان الصفار — وكان يتهم فى شعره — مع جماعة من الشعراء ، وأبو لقمان والدركادو يلعبان الشطرنج ، ونحن نضحك لما يجرى بينهم من غريب المهاترة ، فقال الدركادو ؛ أجز أبا لقمان :

حيتانُ حُبُّك فى طنجور(٣) بلواتى

فقال أبو لقمان : وفحم وجهك فى كانون أحشائى

فقال أحمد بن إبرهيم الكمونى : أحسنتَ يا أبا لقمان ؛ قسيمُك خيرٌ من قسيمه ، فزُهِى ؛ وقال أدافعٌ فى بديع الشعر؟ .. وهذا شعر فى المتف..(٤)

(١) بدائع البدائه ص ٦٥ .
(٢) معجم الأدباء ج ٢ ص ٦٥ .
(٣) الطنجور والطنجرة إناء من نحاس .
(٤) بدائع البدائه ص ٤٠ .

وإذا كان من أنداد ابن رشيق من يستحق أن نقف عنده وقفة — وإن تكن قصيرة . فذلكم هو ابن شرف القيرواني ، وكان نداً وقريعاً لصاحبنا ، ومزاحماً له في مكانته عند المعز بن باديس ؛ قال ابن بسام حين ترجم له : « وبينه وبين أبي على بن رشيق ماج بحر البراعة ودام ، ورجح نجم هذه الصناعة واستقام ، وذهبا من المناقضة مذهباً تنازعاه شراً طويلاً ، وخلداه ذكراً محمولاً ، واحتملاه — إن لم يسمح الله — وزْراً ثقيلاً ؛ وكان أبو على أوسعهما نفساً ، وأمرسهما ملتمساً » . [1]

وهذا التنافس الذى كان بين الرجلين يرجح أن يكون ابن شرف هذا هو من عناه ابن رشيق لما قال : « وفى زماننا هذا قوم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » . [2] ولما قال :

يا موجعى شتماً على أنه ... لو فرك البرغوث ما أوجعـــا
كل له من نفسه آفـــة ... وآفة النحلة أن تلسعا

كما يرجح عندى أن يكون ابن شرف أراد ابن رشيق بعبارته التى يقول فيها مخاطباً أبا الريان الذى عزا إليه الحديث فى رسالته « أعلام الكلام » يا أبا الريان لقد رأيت لك نقداً مصيباً ، ومرمى عجيباً ، ولقد أرغب فى أن أنال منك نصيباً فقال : النقد هبة فى الموالد ، وفيه زيادة طارف إلى تالد : ولقد رأيت علماء بالشعر ، ورواة له ، ليس لهم نفاذ فى نقده ، ولا جودة فهم فى رديه وجيده ؛ وكثير ممن لا علم له يفطن إلى غوامضه ، وإلى مستقيمه ومتناقضه[3] »

على أن التاريخ يسجل لنا اجتماع الشاعرين ، ابن رشيق وابن شرف ، بحضرة المعز بن باديس ، وكيف كان المعز يثير بينهما شياطين الشعر ، يقول ياقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من فى

---

(١) الذخيرة القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .
(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٧٣ .
(٣) أعلام الكلام ص ٢٧ .

حضرته ، فكان يدنى هذا تارة ، ويدنى ذاك تارة أخرى ، فتنافسا ، وتنافرا ، ثم تهاجيا ،ولكن لم يتغير أحدهما على صاحبه بما جرى بينهما من المتناقضات».[١]

قال ابن شرف : استدعانى المعز يوماً واستدعى أبا على الحسن بن رشيق الأزدى ، وكنا شاعرى حضرته ، وملازمى ديوانه فقال : أحب أن تصنعا بين يدى قطعتين فى الموز على قافية الغين ، فصنعنا حالاً من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر ، فكان الذى صنعته :

يا حبذا الموزُ وإسعادهُ   من قبل أن يمضغه الماضغ
لانَ ، إلى ألاَّ مجسٌّ له   فالفم ملآنُ به فارغ
سيان قلنا مأكلٌ طيب   فيه وإلا مشربٌ سائغ

والذى صنعه ابن رشيق :

موز سريع أكله   من قبل مضغِ الماضغ
مأكلةٌ لآكل   ومشربٌ لسائغ
فالفم من لين به   ملآنُ مثل فارغ
يخال وهو بالغٌ   للحلق غيرَ بالغ

ومثل ذلك قوله أيضاً : « استخلانا المعز يوماً ، وقال أريد أن تصنعا شعراً تمدحان به الشّعر الرقيق الخفيف الذى يكون على سوق بعض النساء ، فإنى أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضاً به ؛ وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا وأدعى أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأسر به من عيب عليه ، فانفرد كل منا وصنع فى الوقت ، فكان الذى قلت :

وبلقيسية زينت بشعر   يسير مثل ما يَهَبُ الشحيحُ
رقيقٍ فى خدلجة رداح[٣]   خفيفٍ مثلَ جسم فيه روحُ

(١) معجم الأدباء جـ ١٩ ص / ٣ .

(٢) بدائع البدائه حـ ١ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣) الخدلجة الرداح الممتلئة المكتنزة الثقيلة المشى والعرب تحب من النساء المرأة البضة .

حكى زَغب الخُدود وكلٌ خدٍّ   به زغبٌ فمعشوق مليح
فإن يلك صرح بلقيس زجاجاً   فمن حِدَق العيون لها صروح

وكان الذى قال ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن رأوا بهـا   كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا
وقد زادها الترغيب ملحاً كمثل ما   يزيد خدود الغيد تزغيبها ملحا

ـــ يقول ابن شرف ـــ فانتقد المعز على ابن رشيق قوله : يعيبون ، وقال له : قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقد ما فطنت له ». (١)

١٥ ـــ حساده :

ولما ألف ابن رشيق كتابه العمدة ، نال منه بعض معاصريه ، بنقدهم إياه فى بعض أبوابه ، وظنى أن كان على رأس هؤلاء العائبين ابن شرف فقال الرجل فيهم : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ، ممن ليس له ثقوب فى العلم ، ولا حذق بالصناعة ، كجماعة ممن وسم فى بلدنا بالمعرفة ونسب إليها مكذوباً عليه فيها ، كاذباً فيما ادعاه منها ، ولتعرفنهم فى لحن القول » . (٢)

ويقول فى موطن آخر معرضاً بهم « وكم فى بلدنا هذا من الخفاث ، قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين ، ولولا أن يعرفوا بتخليدهم فى الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يعد خطله ، ويحصى زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم » . (٢)

وليس أوجع من هذا أسلوباً ، ولا أنكى منه طعناً وغمزاً وتعريضاً ، وسنحقق ما كان بين ابن شرف هذا وابن رشيق لنرى أيهما أخذ عن صاحبه .

وقد كنا نود لو وصلنا كتاب الأنموذج له لنرى فيه رأيه فى كثير من معاصرية ،

---

(١) النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف ص ٢١ ، ٩٤ .
(٢) العمدة جـ ٢ ص ٨٠ .
(٣) ابن رشيق للميمنى ص ٤٣ .

فإنه ألفه عنهم ، ولولا بقية من الكتاب نقلتها إلينا كتب التراجم والطبقات لما عرفنا عن الكتاب شيئاً .

١٦ — تلاميذه :

وإذ قلنا فى أنداده ورفاقه ، فإنا نقول كلمة فى تلاميذه .

والعقل يحيل أن يكون ابن رشيق عاش تلك الحياة المليئة بالإنتاج الأدبى والعلمى ثم لا يكون له مريدون . وإذا كانت كتب التراجم لم تعن بتسجيل هذه الناحية فى حياة الرجل ، فإنا نجد فى ثناياها بين الفينة والفينة تلميحاً إلى أن قد كان هناك من أعجبوا بالرجل فى شعره ونقده فأخذوا عنه ، وإليك من وقفنا على طرف من حياتهم فيما قرأنا .

فنهم أبو محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الخزيمى ، يروى كثيراً من شعر ابن رشيق ، فيعده الميمنى فى ترجمته له من تلاميذه ، مع شكه فى رواية الشعر ، « أيرويه عنه بواسطة — كذا — أم بدونها » . [١]

ومنهم أبو عبد الله الصقار الصقلى ، كان فى صقلية وكانت تأتيه أشعار ابن رشيق ، فتاقت نفسه إلى لقائه ، فلما أتيحت له فرصة الرحلة إلى القيروان وبلغها قصد صاحبه ، وسمع منه شعره ، وحكى عنه فقال : « كان بالقيروان غلام وضىء ، وكان يختلف إلى أبى على حسن بن رشيق ، فكان يحذره من المخالطة ، فخرج يوماً يتنزه مع جماعة ، فأشيع عنه ما ينكر ، وبلغ أبا على ذلك فقال بديها :

يا سوء ما جاءت به الحال ... إن كان ما قالوا كما قالوا
ما أحذق الناس بصوغ الخنا ... صيغ من الخاتم خلخال »[١]

وإذا كان الميمنى لا يذكر غير هذين الرجلين بأسلوب لا نقطع معه

---

(١) ابن رشيق للميمنى ص ٤٣ .

(٢) بدائع البداله ص ٢٠٦ .

بأنهما تتلمذا على ابن رشيق ، فإنا نذكر على اليقين تلميذا يصرح هو نفسه بأن ابن رشيق شيخه، ذلكم هو أبو عمر عثمان بن على بن عمر الخزرجى الصقلى، ألف مختصر العمدة ، ويقول عن شيخه : قال لى من قصيدة أولها :

دمع رأى برق الحمى فتحدرا   وجوى ذكرت له الحمى فتسعرا

ولا يكون قال له ذلك الشعر إلا وهو يتاقى عنه ، ويسمع منه .

ولا نشك فى أن كان لابن رشيق غير هؤلاء ، تلاميذ كثر ، ولكن الوثائق غير قائمة فى أيدينا بأسمائهم .

١٧ ــ وفاة ابن رشيق :

(ا) وكما اختلف المؤرخون فى سنة ولادته فقد اختلفوا فى عام وفاته ، واختلافهم ههنا أكبر ، وكذا الشأن فى مكانها .

فرأى صاحب معجم الأدباء أنه « مات بالقيروان سنة ٤٥٦ هـ » .[١] عن « ست وستين سنة » [٢] وبهذا قال السيوطى ، ناقلا عنه ، وهو ناقل عن ابن رشيق كما يقول من كتابه الأنموذج ، والخلط واضح فى قوله « ذكر ابن رشيق هذا نفسه فى كتابه الذى صنفه فى شعراء عصره ووسمه بالأنموذج » [٣] إذ كيف يذكر ابن رشيق ــ أو غيره ، سنة وفاته أو مكانها ، ولكنه اضطراب فى العبارة نقله السيوطى عن صاحب المعجم بلا تحقيق .

وأما صاحب شجرات الذهب ، فيقرر أن الرجل مات سنة ٤٥٦ هـ. يقول تحت حوادث هذه السنة عبارته « وفيها ــ مات ــ ابن رشيق القيروانى ــ أحد الأدباء البلغاء ، وله التصانيف الحسنة » .[٤]

---

(١) معجم الأدباء جـ ٨ ص ١١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١١١ .

(٣) معجم الأدباء جـ ٨ ص ١١٢ .

(٤) شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٩٤ .

وذكر ابن خلكان أنه مات سنة ٤٦٣هـ[١] ثم عاد فقال : « ورأيت بخط بعض الفضلاء أنه توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة بمازر »[٢] وعقب على هذه الرواية بقوله : « والأول أصح » وإن لم يذكر لوجه الصحة سبباً .

ثم يعود ابن خلكان فيذكر رواية أخرى توافق روايته المرجوحة ولا تختلف عنها إلا فى وقتها إذ يذكر فيها السنة والشهر والليلة بالحروف فيقول «وقيل إنه توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ست وخمسين وأربعمائة »[٣] وكأنما يحس من نفسه الحرج فى ترجيح غير هذه الرواية ، وفى تصديره لتلك بكلمة « قيل » المشعرة بالشك ، فيختم حديثه بقوله « والله أعلم » .

وأصحاب دائرة المعارف الإسلامية لا يقطعون فى المسألة برأى وإنما يسوقون الروايتين معاً .

أما أنا فأذهب إلى أنه مات سنة ٤٥٦هـ. لأنه هاجر إلى صقلية سنة ٤٥٣هـ. وأستبعد أن يكون مات سنة ٤٦٦ هـ. فيكون عاش فى صقلية قرابة ثلاثة عشر عاماً ، فى الجو الملىء بالاضطرابات ثم لا نسمع له فى هذه الفترة على طولها صوتاً ، ولا يقولن قائل يجوز أن يكون أنتج فى هذه المدة وضاع إنتاجه ، لأنا نقول إن هذه الفترة مدونة بدقائقها وتفاصيلها ، ولم نعثر فيما قرأنا عنها له ذكراً . مع أنا قرأنا عمن دونه مكانة ومنزلة .

ثم الرواية التى تجعل موته سنة ٤٥٦هـ. تذكر الليلة التى مات فيها والشهر والسنة بالحروف ، وقد رجعت إلى كتاب « التوقيعات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية » وعرضت عليه تلك الرواية التى رجحت والتى تجعل وفاته ليلة السبت من ذى القعدة سنة ٤٥٦هـ. فرأيت فيه أن غرة ذى القعدة من تلك السنة يوافق يوم جمعة . فازددت بها إيماناً لأن اختلاف

---

(١) الوفيات جـ ٤ ص ١٦٤ .

(٢) الوفيات جـ ٤ ص ١٦٥ .

(٣) الوفيات جـ ٤ ص ١٦٦ .

بداية الشهور العربية بيوم واحد أمر كثير الوقوع ، حتى فى أيامنا تلك التى نستعين فيها على التقويم بالمراصد وما فيها من آلات مستحدثة .

ومن الغريب أن يرجح المرحوم أحمد تيمور أن وفاة الرجل كانت سنة ٤٦٣هـ. من غير أن يسوق حجة واحدة تسند هذا الترجيح أو تدعمه[١]. وساق مثل هذه الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه « تاريخ الحركة الفكرية فى مصر » . [٢]

(ب) ومثل اختلافهم فى سنة وفاته اختلافهم فى مكانها ؛ فصاحب المعجم يذكر أنه مات بالقيروان[٣] ، وقد أوضحت ما فى روايته هذه من خلط لأن فيها استحالة عقلية . وينقل عنه السيوطى فهو مثله .

وأما ابن خلكان فيقول : « ولم يزل بها — يعنى القيروان — إلى أن هجم العرب القيروان — كذا — وقتلوا أهلها وأخربوها ، فانتقل إلى جزيرة صقلية وأقام بمازر إلى أن مات »[٤] ثم يقول ثانية وثالثة ، إنه مات فى مازر ويذكر أن مازر « قرية فى جزيرة صقلية وسيأتى ذكرها فى ترجمة المازرى إن شاء الله »[٥]

ويقول القفطى « ولم يزل ابن رشيق على ما هو عليه من إقامة سوق الأدب . . . إلى أن هجم العرب القيروان ، وقتلوا من فيها . . . فعند ذلك فرعنها إلى ساحل البحر المغربى ، ولم يمكنه المقام هناك ، فعدّى البحر إلى جزيرة صقلية ، ونزل بمازن — كذا وهى لا شك مازر — إحدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن مطلود ، فأكرمه واختصه ، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رأيته من قراءته عليه كتاب العمدة فى صنعة الشعر وهو أجل كتبه وأكبرها ؛ ورأيت خط ابن

---

(١) ضبط الأعلام ص ٦٤ .

(٢) الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٦٤ .

(٣) معجم الأدباء جـ ٨ ص ١١١ .

(٤) الوفيات جـ ٤ ص ١٦٥ .

(٥) المصدر السابق ص ١٦٥ .

رشيق على نسخة منه ولم يزل عنده إلى أن مات بمازر فى حدود سنة خمس وأربعمائة — كذا — ولعلها خمس وخمسين وأربعمائة — رحمه الله تعالى » [١]

وإذ رددت رواية ياقوت التى تجعل مكان وفاة الرجل القيروان ، لما أشرت إليه من استحالة قبولها عقلا ، وكذا رواية السيوطى عن ياقوت ، فإنى أقرر أن ابن رشيق مات فى مازر بصقلية ، ذلك أننا نعلم يقينا أنه انتقل إليها ، يقول ابن بسام : « إن بعض وزراء إشبيلية قال : جهز عباد بعض التجار إلى صقلية ، وكان ابن رشيق كثيراً ما يسمع بذكر عباد فيرتاح إلى جنابه ارتياح الكبير إلى شبابه ، فلما سمع بمقدم التاجر لزم داره وجعل يتردد عليه ويغشاه ؛ ويقترح عليه لقاء عباد ويتمناه ، والتاجر يعده ويمنيه ، ويقرب له ذلك ويدنيه ، حتى إذا أسمحت الرياح ، وأمكن فى ميدان البحر المراح ، ذهب التاجر لطيته ، وخلى ابن رشيق إلى أمنيته ؛ وأخبر التاجر عباداً بذلك ، كأنه يتبجح بما هنالك ؛ فبالغ عباد فى نكاله ، وأمر باستصفاء أكثر ماله ؛ ثم رام ابن رشيق بعد ذلك ركوب البحر فخشن ملمسه ، ولم تساعده على ركوبه نفسه فقال :

البحر صعب المذاق مر لاجعلت حاجتى إليه
البحر ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه[٢]

وهكذا كانت آخرة الرجل فى صقلية :

وأما أنه « مات بالقيروان » فلا يكون إلا أن يكون عاد إليها من صقلية ولم ترد رواية واحدة تفيد ذلك . لا قوية ولا ضعيفة ، فلا يبقى إلا أنه مات بمازر من قرى صقلية .

والذين قالوا بموته فى القيروان وهموا والتبس عليهم الأمر لما رأوه يسمى ابن رشيق القيروانى .

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة جـ ١ ص ٢٨٥ .

(٢) الذخيرة ، القسم الرابع — المجلد الأول ص ١٧٦ بمكتبة الجامعة المصرية .

الفصل الثالث

جوانب ابن رشيق

١ ــ ثقافته ومصادرها :

الثقافة عند علماء الاجتماع هي طريقة الحياة في مجتمع من المجتمعات ، وأهم عنصر فيها أنها من صنع المجتمع الذي يعيشها ، وأنها تشمل كل ما هو مشترك بين أفراده ، فطرق التسلية ، ونظم الحكم ، والعادات الدينية ، ومعايير الأخلاق وطرائق الحياة ، وكل ما يتعرض له جملة الشعب يسمى ثقافة ، وبحسب حظه منها ودرجته فيها يكون وضعه في سلم الحضارة .

أما الثقافة عند علماء الأدب فهي مقدار ما يحصله الفرد من ألوان المعرفة التي تخدم اتجاهه الفكري ، وتأتي للفرد إما من شيوخ يجلس إليهم ويتلقى عنهم ، ويروي لهم بعد أن يناقش أو يسلم بما يقولون ، وإما من شيوخ يأخذ عنهم بطريق غير مباشر ، وإنما بالوساطة ، ونعني بالوساطة في هذا المجال الكتاب أو الراوية إذ لم يكن في القديم غيرهما فلا إذاعة ولا صحافة ولا شيء من هذا الذي وصلت إليه حضارتنا المعاصرة . ويضاف إلى هذين المشرعين استعداد الفرد نفسه ، وما يرزقه من قدرة فطرية يستطيع بها أن يعادل فيما يتلقى من الخارج أو يفهم فيه فهماً جديداً ، أو يبتكر ما لم يسبق إليه ، أو يتمثل الذي سمع ورأى وقرأ فيحيله شيئاً جديداً ، إلى غير ذلك مما تختلف القدر في التهدي إليه بحسب ما أعدت له .

وفي ضوء هذه اللمحة ننظر إلى ابن رشيق ، فنرى أن قد كانت وسيلته في ثقافته كل أولئك ، فكان له شيوخ أخذ عنهم ، وامتدت يده إلى أكثر

ما عرفت المكتبة العربية يومئذ فقرأه ، وحفظ منه ، وأبدى فيه رأياً، فقبل ورد، وأطرى وذم ، وعدل وتمثل ، حتى كان علمه — كما يقولون — علمين ، علم رواية وعلم دراية .

وإذ كنا بحاجة إلى ما يشهد بأنه رزق استعداداً فطرياً ممتازاً فوق ما تشهد به آثاره التي سنعرض لها بعد، فإنا نقول إنه كان ذا شاعرية من الطراز الممتاز. وهذا أوان أن نقول في ذلك كله على تفصيل .

٢ — أساتذته :

وأريد بهم أولئك الذين تتلمذ عليهم ، وجالسهم ، وسمع منهم ، وأخذ عنهم مشافهة ومحادثة ومناقشة ، ولا أعني من قرأ لهم ، فأولئك أكثر من أن يحصوا أو يعدوا . فمن شيوخه :

(ا) أبو عبد الله التميمي محمد بن جعفر القزاز ، قال عنه الأستاذ أحمد نجاتي : « كان شيخ اللغة في المغرب، إماماً علامة قيما لعلوم اللغة العربية، مهيباً عند الملوك والعلماء ، محبوباً عند العامة ، وله مؤلفات في اللغة والأدب ، توفي بالقيروان سنة ٤١٢هـ. عن نحو تسعين سنة » . [١]

وقال عنه تلميذه ابن رشيق « إنه صاحب الجامع في اللغة الذي يقارب تهذيب الأزهري » ،[٢] وله كتاب ضرائر الشعر . [٣]

وهو من أوائل شيوخ ابن رشيق ، الذين أخذ عنهم اللغة والأدب ، ولم تتعد تلمذته عليه بضع سنوات ، ونقل عنه في كثير من أبواب عمدته . [٤]

(ب) أبو أسامة ، ولم أقف من خبره إلا على ما قاله فيه ابن رشيق ،

---

(١) هامش وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٦٣ .

(٢) معجم الأدباء جـ ١٨ ص ١٠٥ .

(٣) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٨٣ أدب .

(٤) العمدة جـ ١ ص ١٤٤ ، ١٥٠ .

قال : «كان عالماً باللغة وقد عاصرته»، [١] وهو وإن لم يصرح بالتتلمذ عليه فإنه يروى عنه ويسأله فيجيبه .

(حـ) أبومحمد عبد الكريم بن إبرهيم النهشلى، وترجم له الميمنى فى إسهاب [٢] والذى يعنيني فى أمر هذا الشيخ ، أنه كان أحد أساتذة النقد الذين أخذ عنهم ابن رشيق فيقول فى باب حد الشعر «وقال عبد الكريم : الشعر أربعة أصناف فشعر هو خير كله ؛ وذلك ما كان فى باب الزهد والمواعظ الحسنة ، والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه ذلك، وشعر هو ظرف كله ؛ وذلك القول فى الأوصاف والنعوت ، والتشبيه وما يفتنّ فيه من المعانى فى الأدب ، وشعر يتكسب به ؛ وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ، ويخاطب كل إنسان من حيث هو ، ويأتى إليه من جهة فهمه» . [٣]

وللنهشلى قطعة من كتابه «الممتع» بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤ مجاميع ش .

(ى) أبو إسحق الحصرى القيروانى . وذكر ابن رشيق أنه أدركه وهو صبي ، وهذا القول إن صح يرجح أن الحصرى مات سنة ٤١٣هـ. وذكر ابن رشيق أنه «أنشد بين يديه شعراً أعجبه» [٤] وقال عنه فى الأنموذج كما روى صاحب معجم الأدباء : «كان شاعراً نقاداً ، عالماً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب فى الاستعارة تشبها بأبى تمام فى أشعاره ؛ وتتبعاً لآثاره ، وقد كان أخذ فى عمل طبقات الشعراء على رتب الأسنان، وكنت أصغر القوم سناً فصنعت :

رفقاً أبا إسحق بالعـالم حصلت فى أضيق من خاتم

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٢) ابن رشيق ص ٤٠ .

(٣) العمدة جـ ١ ص ٩٨ .

(٤) قراضة الذهب ص ٣٧ .

لو كان فضل السبق مندوحة　　فضّل إبليس على آدم

فبلغه البيتان ، فأمسك عنه ، واعتذر منه ، ومات وقد سد عليه باب الذكرة ولم يصنع شيئاً » . (١)

وقد أفاد منه ابن رشيق ونقل عنه فى أكثر من موضع بكتابه العمدة ، كما فى وحدة القصيدة جـ ٢ ص ١٦ بزهر الآداب فإنه هو الذى نقله ابن رشيق بكتابه العمدة جـ ٢ ص ١١٢ إلى غير ذلك . وعنه يقول : «كان شبان القيروان يجتمعون عنده ، ويأخذون عنه ، ورأس عندهم ، وشرف لديهم . وسارت تأليفاته ، وانهالت عليه الصلات من الجهات » . (٢)

(هـ) الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن أبى سهل الخشنى الضرير :
ويقول فيه تلميذه ، كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً ، مفتَقَراً إليه فيهما ، بصيراً بغيرهما ؛ ولم يرقط ضرير أطيب منه نفساً ، ولا أكثر منه حياء ، مع دين وعفة » . (٣)

ويمكن أن نقول عنه إنه أخذ منه اللغة والنحو كما أخذ عنه النقد والبصر به ، فقد نقل رأيه فى القطع والطوال من القصائد . (٤)

(و) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم السمين ، ويكثر ابن رشيق من الرواية عنه وقد سأله عن المقاطع .

أولئك شيوخ ابن رشيق ، الذين وقفت على طرف من أخبارهم ، وتأكد لدى أخذه عنهم ، والذى لا شك فيه أن ثمة غيرهم ، ولكن لا سبيل إلى الحديث فيهم لقلة معلوماتى عنهم .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٢ ص ٩٥ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١٣ .
(٣) بساط العقيق ص ٥٧ .
(٤) العمدة جـ ١ ص ١٦١ .

٣ ـ قضية منافسة :

وقبل أن نتحدث عن المصدر الثانى من مصادر ثقافة ابن رشيق نذكر أنه نفى عن نفسه دعوى أن يكون أخذ عن بعض معاصريه . وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى أن هذا البعض الذى عناه فى تعريضاته إنما هو ابن شرف القيروانى للذى كان بينهما من المنافسة . لكن نفى ابن رشيق ـ بنفسه عن نفسه ـ لا ينهض حجة على صدقه ، فلنبحث عن مرجحات تؤيد هذه الدعوى .

إن التشابه قائم بين بعض ما جاء لابن رشيق من قضايا النقد فى كتبه ، وبين ما جاء منها لابن شرف فى رسالته . « أعلام الكلام » وليس بين أيدينا ما يشير إلى تاريخ تأليف رسالة أعلام الكلام هذه ، حتى نعرف من السابق ومن المسبوق فنعرف من الآخذ ومن المأخوذ منه . غير أن ذلك لا يحول بيننا وبين الاجتهاد .

وبقراءة مقدمة رسالة أعلام الكلام نرى صاحبها يقول : « وعزوتها إلى أبى الريان الصلت بن السكن بن سلامان ؛ وكان شيخاً همًّا فى اللسان، وبدراً تمًّا فى البيان ، قد بقى أحقاباً ، ولقى أعقاباً ، ثم ألقته الينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات ، فامتحنا من علمه بحراً جارياً ، وقد حنا من فهمه زنداً وارياً ، وأدرنا من بره ظرفاً ، واجتنينا من ثمره طرفاً ، ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل »[1] وصريح ذلك القول أنه ألف الرسالة فى صدر الشباب ، فإذا عرفنا أن مولده كان سنة ٣٩٠هـ. قدرنا أنه كتبها بين سنة ٤١٠ و ٤٢٠هـ. لأن هذه الفترة هى التى يمكن أن تعد سن الشباب . وإذ أن العمدة ألف ما بين سنة ٤١٢هـ ، ٤٢٥هـ . فإن الرجلين يكونان قد تعاصرا فى تأليف الكتابين .

وعلى هذا يكون ما ادعى على ابن رشيق من أنه أخذ عن ابن اشرف لامانع

---

(١) أعلام الكلام ص ١٣ .

منه ، وأن نفى هو عن نفسه ذلك الأخذ ؛ لا سيما إذا أضفنا أن بين الرسالة لابن شرف وبين العمدة لابن رشيق مشابه كثيرة ، فمن ذلك أن ترى رأيهما فى ابن الرومى قريباً من قريب .

يقول فيه ابن شرف : « وأما ابن الرومى فشجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ما ليس له فى الإطراء ، فتح فيه أبواباً ، ووصل منه أسباباً ، وخلع منه أثواباً ، وطوق به رقاباً » . [1]

ويقول عنه ابن رشيق : « وكان ابن الرومى ضنيناً بالمعانى ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه فى كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم ألا مطمع فيه لأحد » . [2]

ويستفتح ابن شرف رسالته تلك بقوله « الضليل مؤسس الأساس ، وبنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ؛ وكانوا يقولون تامة القامة ، وطويلة القامة ، وأشباه هذا ، وجيداء، وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس ، بعيدة مهوى القرط ؛ وكانوا يقولون فى الفرس السابق : يلحق الغزال ، ويسبق الظلام أو الظليم ، حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد ، ومثل هذا له كثير » . [3]

ويقول ابن رشيق فى مستهل رسالته قراضة الذهب : « وأنا أقتصر من جميع الشعراء فيما أورده على امرئ القيس ، لأنه المقدم لا محالة ، وإن وقع فى ذلك بعض الخلاف ، فالمميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة فى نفسه ما لا يجد لغيره من كلام الشعراء ؛ والبحث والتفتيش يزيدانه جلالة ، ويوجبان له على من سواه مزية » ، ثم يذكر أن له قيد الأوابد ، وأن له فى الليل قوله :

---

(١) أعلام الكلام ص ٢٤ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٣) أعلام الكلام ص ١٦ .

فقلت له لما تمطّى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وقوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل[١]

ويتحدث ابن شرف عن القدماء والمحدثين فى رسالته[٢]، فنرى ابن رشيق كذلك يتحدث عنهم فى كتاب العمدة[٣] .

غير أن احتمال أخذ أيهما عن صاحبه ، يعكره علينا أن ابن شرف يعود فى رسالته « أعلام الكلام » فيقول : ولعمرك ما أشكر من نفسى ، ولا أثنى على شىء من حسى ، إلا ظفرى بالأقل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الغربة من قلبى ، وثلمته صعقات الفتنة من لبى ، وقطعتْ أهوال البر والبحر من خواطرى ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزى وبصائرى ؛ وهذا الحديث يوحى بأن الرسالة كتبت بعد أهوال بر وبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وبعد وحشة ووحدة ، ونحن نعلم ألا فتنه إلا فتنة المعز بن باديس التى كانت سنة ٤٤٥هـ. والتى دعت إلى فرار المعز من القيروان إلى المهدية سنة ٤٤٩ هـ. والتى كانت سبباً فى خروج ابن رشيق وابن شرف إلى صقلية ، ثم خروج ابن شرف وحده إلى الأندلس . فإذا كان ذلك ، فإنا نؤيد ابن رشيق فيما ادعاه لنفسه من أنه لم يأخذ عن غيره ، ومن أنه بالتبع لم يأخذ عن ابن شرف ، لأن رسالة ابن شرف على ذلك تكون قد كتبت بعد هذه الأحداث ، والعمدة على ما حققت ألف قبل ذلك بكثير[٤] ويكون ابن شرف هو الذى أخذ عن صاحبنا ، فلا يعدّ ، بعدُ ، من مصادر ابن رشيق لا فى العمدة ولا فى القراضة .

---

(١) قراضة الذهب ص ١٥ .

(٢) أعلام الكلام ص ٢٨ .

(٣) العمدة ج ١ ص ٧٣ .

(٤) راجع ذلك فى ابن رشيق ونقد الشعر للمؤلف — ص ٧٥–٨٥ .

٤ ـ أوهام المترجمين :

ومما تجدر الإشارة إليه أن صاحب « الذخيرة » حين يتحدث عن ابن شرف يذكر فصلا على أنه من كلامه ويذكر أنه موجود فى صدر رسالته : « أعلام الكلام » فيقول : « ومن كلامه فى صدر كتابه الموسوم بأعلام الكلام ، فصل يقول فيه قد أطلت . . . » ولكن الرسالة بأيدينا وليس فيها شىء من هذا الذى يذكره ابن بسام ؛ فهل كانت الرسالة أكبر مما هى عليه اليوم ، وضاع منها . . أم أن ابن بسام نسب إليها ما ليس فيها ؟

ثم هو يقول أيضاً : « إن ما فى الرسالة مقامات عارض بها البديع » وليس ما فى الرسالة بمقامات تشبه أن تكون معارضة لمقامات البديع ، اللهم إلا أن يعد الرسالة كلها مقامة من هذه المقامات التى ذكر ابن بسام أن ابن شرف صنعها وجمعها فى كتاب « أبكار الأفكار » إذ يقول عن هذا الكتاب : إنه « يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال » . [1]

وأشير أيضاً إلى أن فى صلب رسالة « أعلام الكلام » كلاماً يبدو أنه ليس منها ، كأن تجد فيها بعد حديث أبى الريان عن أبى تمام العبارة الآتية : « قال ابن بسام أما صفته لأبى تمام فنصفة لم يثن عطفها حمية ، ولا تعلقت بذيلها عصبية ، حتى لو سمعها لا تخذها قبلة ، واعتمدها ملة ، فما لام من أدب وإن أوجع ، ولا سب من صدق وإن أقذع : » [2] فهل هذه زيادة من الناسخ إذ كيف يكون منها ما يقوله ابن بسام وهو متأخر فى الوجود عن صاحب الرسالة : ابن شرف !

وبعد فبالنظر إلى ثقافة شيوخ ابن رشيق ، أولئك الذين تحدثنا عنهم ، نرى أنهم جميعاً أصحاب ثقافة أدبية تتصل أكثر ما تتصل بالنظر فى الشعر

---

(١) الذخيرة ، المجلد الأول من القسم الرابع ص ١٤٠ .

(٢) أعلام الكلام ص ٢٣ .

والنثر وما يمت إليهما بسبب ، فلا عجب أن تأثر بهم ابن رشيق فكان إنتاجه كله في وادى الأدب والنقد . وأعنى بهذه الإشارة أن ليس فيهم المؤرخ ولا المحدث ، فليس إذن في إنتاجه ما يتصل بالتاريخ والحديث كما ذهب إليه بعض الذين أرخوه فنسبوا له كتباً في هذين الفنين من فنون المعرفة على ما سنفصله بعد .

٥ — أثر المشرق فى ثقافته :

أما عن المصدر الثر فى ثقافة ابن رشيق فإنه أكثر ما كتب فى موضوع النقد قبله لا سيا الذى يصدر عن المشرق .

وليس همى هنا أن أحصى كل ما وقعت عليه يده ؛ إذ ليس إلى إحصاء ذلك من سبيل . وإنما أذكر طائفة مما قرأ ، وممن قرأ لهم ، ونقل عنهم ، وصرح به فى كتابيه القائمين بأيدينا ، وأعنى بهما العمدة ، وقراضة الذهب .

(ا) فهو قد قرأ للقاضى الجرجانى كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» وأكثر من الاستشهاد بآرائه ، ونقل كثيراً منها برمته ، راضياً عنها فى أحيان كثيرة يستطيع أن يقف عليها من يتصفح العمدة ، رافضاً لها فى بعض الأحيان ، أو مفسراً إياها كالذى نراه حين يقول عن البحترى :

« غير أن القاضى الجرجانى فضله ، بجودة الاستهلال ، وهو الابتداء ، على أبى تمام وأبى الطيب ، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة ، ولست أرى لذلك وجهاً إلا كثرة شعره كما قدمت ؛ فإنه لوحاسبهما ابتداء جيداً بابتداء جيد ، لأربى عليهما وقصرا عن عذره » . [1]

ولا يفوته أن يشهد للقاضى بالخير حين يقول « وقال الجرجانى ، وهو

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٠٤ . والعذر يريد بها ابتكاراته ومفردها عُذرة ، وهى فى الأصل علامة تعقد فى ناصية الفرس السابق دفعاً للعين .

أصح مذهباً ، وأكثر تحقيقاً من كثير ممن نظر فى هذا الشأن » . يريد السرقات .

(ب) وقرأ لابن وكيع كتابه «المنصف» ، وأبدى فيه رأيا لمّا قال : « وأما ابن وكيع فقد قدم فى صدر كتابه على أبى الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر ، إلا الصدر الأول إن سلم لهم ذلك ، وسماه كتاب المنصف ، مثل ما سمى اللديغ سليماً ، وما أبعد الإنصاف منه »[1] . وهذا الأسلوب يكشف عن قوة شخصية ابن رشيق ، وأنه يعتد بنفسه وبرأيه ، فيقبل ويرفض غير مقتف أثراً ، أو ماش فى سبيل غيره إلا أن يكون عن اقتناع .

(حـ) وقرأ للآمدى كتابه « الموازنة بين الطائيين » قراءة الدارس الذى يتمثل ما يقرأ ، فتراه يقول : « وكان أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى يفضل ابتداءات البحترى جداً ، وهو الذى وضع كتاب « الموازنة والترجيح بين الطائيين ، ونوه بالبحترى أعظم تنويه » . [2]

(ء) كما قرأ للحاتمى رسالته وأكثر من النقل عنها ، لا سيما فى باب السرقات .

(هـ) وكذلك قرأ للرمانى أبى الحسن ، ونقل عنه فى كثير من المواطن .[3] وأكثر ما يكون ذلك حينما يتعرض للحديث عن البلاغة وفصولها .

(و) وأكثر من الرواية عن الجاحظ — وله فى نفسه المنزلة الكبرى ، ولكتبه الأثر الواضح فى تأليفه وإنتاجه ، حتى لرجحت أن يكون ابن رشيق ، قد نهج منهجه ، وجرى فى أثره ، ولكنه كان فاضلا حين اعترف ، ويعترف له كثيراً بفضل السبق ، مع التقدم فى الزمن فيقول : « وقد استفرغ الجاحظ ، وهو علامة وقته ، الجهد : فوضع كتاباً لا يبلغ جودة وفضلا ، ثم ما ادعى

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) العمدة جـ ٢ ص ٢٠٥ .

إحاطة بهذا الفن لكثرته[١] والكتاب الذى يشير إليه إنما هو البيان والتبين ، وأما الفن فالبيان .

وينقل عنه فى باب النظم أن « أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج »[٢] وكأنما ارتضى هذا الرأى فقال : « وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذى ذكره الجاحظ لذ سماعه ، وخف محتمله »[٣] .

(ز) ورأى ابن رشيق كتاب الجمهرة ، وقرأه ، ونقل منه حين تحدث عن المعلقات فقال : « وقال محمد بن أبى الخطاب فى كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب : إن أبا عبيدة قال : أصحاب السبع التى تسمى السمط ، امرؤ القيس وزهير . . . »[٤]

(ح) أما عن ابن سلام الجمحى فما أوضح أثره فيما كتب ابن رشيق ، يصرح بذلك فى أكثر ما يأخذ عنه كأن يقول « إن للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم »[٥] .

(ط) وكذلك أخذ عن ابن قتيبة ، وكان هذا فيما كتب مصدراً لصاحبنا فى كثير من معارفه التى كتب عنها ، فقد قرأ له كتاب « الشعر والشعراء » ونقل منه وسنرى أثر ذلك واضحاً كلما قرأنا موضوعات النقد عن ابن رشيق[٦] وقرأ له كتاب « المعارف » وصرح بذلك حينما تحدث عن غزوات الرسول فقال : « وكل هذا مختصر من كتاب ابن قتيبة ، وإياه قلدت فيما رأيت من هذه الطريقة »[٧] .

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٢٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٧٨ .
(٥) المصدر السابق ص ٩٨ .
(٦) المصدر السابق ص ١٩٠ .
(٧) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(لـ) وكالشعر والشعراء لابن قتيبة فى حياة ابن رشيق العاجية ، كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، فقد نقل عنه فصولا كاملة أو تكاد تكون كاملة ، ويعقب عليها أحياناً بالشرح والتوضيح ، كما يبدى فيها رأيه ، برضا أو برفض كأن يقول بعد أن ينقل قطعة منه ! « إلا أن قدامة أبى منه وأنكره جملة ، وليس ذلك صواباً » . (١)

وكما أوضحت فى كتابى « ابن رشيق ونقد الشعر » يمكن القول إنه اتخذ من قدامة إماماً فى كثير مما عرض له مما يتعلق بالشعر فى كتابه العمدة » لا سيما فى باب الأغراض .

كما لم يفته أن يقرأ كتاب « البديع » لابن المعتز ، وتأثره به جد واضح فيما كتب من أبواب البلاغة .

ويلفت نظر الباحث أنه لم يرو عن الأندلسيين ، اللهم إلا أن يكون عن صاحب العقد الفريد ، على قلة وندرة ، وتعليل ذلك فيما أرى ، أن أهل المغرب كانوا يتخذون من أهل المشرق وعلمائه لأنفسهم إماماً .

وثمة كتاب إعجاز القرآن للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ. فإنه يتفق مع ابن رشيق حين اشترط النية والقصد فى الكلام ليعد من قبيل الشعر ، ولكن ابن رشيق لا يذكره ولا يشير إليه ، فهل قرأه وأخذ منه ورفض أن يصرح بأسمه ؟ وذلك مالم نألف من الرجل فى أمانته ، ولا يمكن أن يكون من توارد الخواطر اتفاقهما هذا .

وعندى أن كليهما أخذ عن الجاحظ فهو قبلهما ، وهو الذى عرض لهذا الشرط فى الكلام ليكون شعراً فى الاصطلاح .

وكما لم يذكر ابن رشيق كتاب الباقلانى، فإنه لم يذكر كتاب «الصناعتين» لأبى هلال العسكرى ، ولعله لم يصل إلى يده .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢١ — ٨٤ .

٦ ــ قدرته على تمثل المعرفة :

وإذا اعتبرنا استعداد ابن رشيق ، الفطرى ، مصدراً من مصادر ثقافته على ما فى ذلك من تجوز كبير ، فإنا نذكر أن قد كان لهذا الاستعداد أثر واضح فى إنتاجه ، فلم يكن متلقياً عن شيوخه وحسب . ولم يكن مجرد قارئ لما كتب غيره قبله . ولم يكن مجرد وساطة فى نقل آثار المتقدمين ، وإنما كان فوق ذلك بكثير ، كان بوتقة تصهر ما يأتى فيها ، ثم تخرجه للناس شيئاً جديداً كل الجدة ، كان يسلط على ذلك كله من عقله وذهنه فيحياه خلقاً آخر ، برأيه وثقوبه ، يرضى عما يتلقى أحياناً،ويرفض أحياناً،ويناقش ويعارض أحياناً ثالثة ، فيذهب غير المذهب ، ويرى غير الرأى ، مما يؤكد أن كانت له شخصيته الواضحة فيما خلف من آثاره . وليس كما زعم عليه الدكتور مندور حين قال : « وتلا عبد القاهر مؤلفون ، بل وعاصره مؤلفون كأبى على الحسن ابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣هـ أو سنة ٤٥٦هـ. صاحب العمدة الذى جمع فى كتابه الكثير من أخبار الأدب العربى والنقد العربى وعلوم اللغة ، دون أن يتضح للمؤلف منهج خاص وشخصية متميزة » . (١)

٧ ــ شاعريته :

يعتبر ابن رشيق بين شعراء عصره من المبرزين . وقد تقدم أنه هو وابن شرف ، كانا شاعرى قصر المعز لكن ابن بسام يقدم صاحبنا على ابن شرف « ويرفعه درجات » وابن رشيق نفسه يربأ عن أن يكون صغر سنه مما يؤخره عن شعراء القيروان فى نظر الحصرى حين هم هذا بوضع كتاب فى طبقات الشعراء ، يكون أساسه السن ، وقد تقدم خبر ذلك كله . وسيرد عليك مما نختار له ما يؤكد صدق دعوانا فى شاعرية الرجل .

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ٢٨٨ .

على أن ابن رشيق لا يُزهى بشعره فوق درجته، وإنما يضع نفسه موضعها، فلا يتطاول على أمثال المتنبي أو البحترى أو أبي تمام؛ قال ابن بسام: «... وحدثت أن أبا على بن رشيق ناجى نفسه بمعارضة أبي الطيب فى بعض أشعاره وراطن شيطانه بالدخول فى مضماره، فأطال الفكرة، وأعمل النظرة. فأداه جهده وذهب به نقده إلى معارضة قوله:

أمِن ازديارك فى الدجى الرقباء [1]

فبث عيونه، واستمد ملائكته وشياطينه . . . ثم صنع قصيدة فيما بلغني، رأى أنها مادة طبعه، ومنتهى طاقة وسعه، ثم حكّم نقده، ورضى بما عنده، فرأى أن قصرت يداه، وقصر مداه، وعلم أن الإحسان كنز لا يوجد بالطلب، وميدان لا يستولى عليه التعصب، وصان نفسه عن أن يتحدث عنه، بأن تكون الهرة أحزم منه»[2] ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه.

٨ — آثار ابن رشيق:

يعثر المتصفح لكتب الطبقات والتراجم، على أسماء كثيرة لمؤلفات نسبت كلها إلى ابن رشيق. وسنتحدث هنا عما وقفنا عليه من ذلك ونناقشه، ثم نحاول ترتيب ما يتأكد لنا أنه له، ترتيباً تاريخيًّا ما أعانت على هذا وسائلنا، ونخص كتبه الباقية إلى يومنا كلا بكلمة، ولعل فى ذلك بعض القيام بحق الرجل.

فمما وردت أسماؤه على أنه كتب له، وبقى منها وضاع ما يأتى:

١ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده.

٢ — قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب.

٣ — أنموذج الزمان فى شعراء القيروان.

٤ — الشذوذ فى اللغة. (يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة فى بابها).

---

(١) هذا شطر مطلع قصيدة المتنبى، وشطره الثانى: إذ حيث أنت من الضياء ضياء.

(٢) الذخيرة — القسم الرابع — المجلد الأول ص ١٥.

٥ — الرسائل الفائقة والنظم الجيد .

وهذه ذكرها له ابن خلكان حين ترجمه[١] ، كما أثبت له فى ترجمة ابن شرف :

٦ — ساحور الكلب .

٧ — نجح الطلب .

٨ — رفع الإشكال ودفع المحال .

٩ — قطع الأنفاس .

١٠ — نسخ الملح ومسخ اللمح .

وقد ذكر هذا الكتاب ياقوت وروى له منه قوله :

المرء فى فسحة كما علموا — حتى يرى شعره وتأليفه

فواحد منهما صفحت له — عنه وجازت زخاريفه

وآخر نحن منه فى غرر — إن لم يوافق رضاك تثقيفه

وقد بعثنا كبسين ملؤهما — نقد امرئ حاذق وتزييفه

فانظر — وما زلت أهل معرفة — يامن لنا علمه ومعروفه[٢]

ويشبه أن يكون ابن رشيق اتجه بشعره هذا إلى سيده أبى على ابن أبى الرجال . فمثل هذا الأسلوب ، والاتجاه به إليه كثير فى آثار الرجل ، وإذا صح هذا يكون ذلك الكتاب أو تلك الرسالة قد كتبت قبل سنة ٤٢٥ هـ. التى فيها توفى أبوعلى . وربما رجح ذلك الذى تقدم ما جاء فى نفس الكتاب من قوله :

ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت — حبالى ، ولاولّى ثنائى مودعاً

إلى أن يقول :

فباينت لا أن العداوة باينت — وقاطعت لا أن الوفاء تقطعا

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٢ — ١٧٠ .

(٢) معجم الأدباء جـ ٨ ص ١١٧ .

إذ تميل النفس إلى اعتبار ذلك الشعر مما قاله الرجل يعتذر به من غيبته عن ديوان سيده ، تلك الغيبة التي أشرنا إليها حين تحدثنا عن حياته .

١١ — سر السرور ، وذكره له ياقوت فى معجمه ، ونقل منه قوله :

معتقة يعلـــو الحباب متونها فتحسبه فيهـــا نثير جمان

رأت من لجين راحة لمديرها فطافت له من عسجد ببنان

وزاد صاحب كشف الظنون على هذه الكتب :

١٢ — شرح موطأ مالك .

١٣ — تاريخ قيروان .

وأضاف له صاحب بساط العقيق : [١]

١٤ — الروضة الموشية فى شعراء المهدية .

١٥ — ميزان العمل فى تاريخ الدول .

وذكر له عبد العزيز الميمنى .

١٦ — جزءا من ديوانه .

وقال عنه : موجود بمكتبة أسكوريال ضمن مجموعة : [٢]

وأثبت له الأستاذ نجاتى : [٣]

١٧ — طراز الأدب .

١٨ — الممادح والمذام .

١٩ — متفق التصحيف .

٢٠ — تحرير الموازنة .

٢١ — الاتصال .

٢٢ — المن والفدا .

---

(١) بساط العقيق ص ٨٩ .

(٢) ابن رشيق ص ٨٣ .

(٣) حاشية وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٧ .

٢٣ — غرائب الأوصاف ، ولطائف التشبيهات لما انفرد به المحدثون .
٢٤ — كتاب الرياحين .
٢٥ — صدق المدائح .
٢٦ — الأسماء المعربة .
٢٧ — إثبات المنازعة .
٢٨ — معالم التاريخ .
٢٩ — التوسع فى مضايق القول .
٣٠ — بلغة الأشفاق فى ذكر أيام العشاق .
٣١ — الحيلة والاحتراس .
٣٢ — المساوئ فى كشف السرقات الشعرية .

وعلق الأستاذ نجاتى على ذلك الثبت بقوله : ويخيل لى أن بعض هذه الأسماء تراجم لأبواب من مشهور كتبه .

ولولا أن الأستاذ جعل الشك فى بعض هذه الأسماء لخالفته لأن طائفة منها ثبت وجودها على أنها كتب مستقلة ، نقل ذلك أصحاب التراجم ، كسر السرور ، وفسح الملح ، والأنموذج ، وبعضها تحدث عنه ابن رشيق نفسه فقد ذكر فى كتابه قراضة الذهب أن له رسالة « المساوئ » وهكذا .

وأيا ما كان الرأى فى هذه الأسماء ، فأكثرها مفقود، وليس بأيدينا منها اليوم إلا العمدة ، وقراضة الذهب ، والجزء من ديوانه بمكتبة الأسكوريال وسنخص العمدة والقراضة بكلمة فيما بعد .

٩ — شبهة وردها :

بقى أن الدكتور حسين مؤنس يذكر فى كتابه « فتح العرب للمغرب » أن ابن رشيق من ثقات أهل البلاد .. وممن تناولوا الكتابة فى تاريخ المغرب».[١] ولست أدرى على أى سند اعتمد الدكتور فى إصدار هذا الحكم ، اللهم إلا أن

---

(١) فتح العرب للمغرب ص ٣٠٩ .

يكون اعتمد على سعادة حسن حسنى باشا وزير تونس ، حيث قال « أما الفن الذى أفاض فيه ابن رشيق عرفانه ، وأطلق للقلم عنانه فهو التاريخ وفروعه ، فإنه وضع فيه "ميزان العدل فى تاريخ الدول" أتى فى ضمنه على الدول العربية قبل الإسلام وبعده إلى زمانه : ثم قال : « وهو مفقود الآن » ؟ [1]

وهذا كله يتعرض لمثل ما يأتى من الاعتراضات :

١ — إن حسن حسنى باشا لم يذكر لنا المرجع الذى ذكر هذا الكتاب حتى نناقشه .

٢ — إن الكتب التى ترجمت لابن رشيق كالمعجم ، والوفيات ، والبغية ، وشذرات الذهب ، إلى غير ذلك مما وقفنا عليه لم تذكر له ذلك الكتاب ، اللهم إلا كشف الظنون فقد ذكره ، ولكنه لم يذكر أنه أتى فيه على « الدول العربية قبل الإسلام وبعده إلى زمانه » وإنما قال : ميزان العمل فى التاريخ لحسن بن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ. اقتصر فيه على عدد الأيام من دول الملوك » . [2]

٣ — إن ابن رشيق نفسه يذكر فى قراضة الذهب أن غارة للجراد وقعت بالمغرب وأن قحطاً نزل بالقيروان. ثم يقول «ولا أشك أن أصحاب التاريخ أثبتوا القصة والسنة التى كانت فيها » [3] ومفهوم هذه العبارة أنه هو ليس من أصحاب التاريخ ولا من كتابه .

٤ — إن المترجمين القدماء اعتادوا أن يصدروا ترجماتهم بفذلكات تنم عما اشتهر به المترجم ، كأن يقولوا : العالم المؤرخ ، أو الشاعر الأديب ، أو الكاتب المترسل ، أو الرحالة الأديب الكاتب ذو الوزارتين . . . إلى غير ذلك مما يعطى فكرة عن أهم ما اشتهر به الرجل.ولا نجد فى جانب ابن رشيق شيئاً

---

(١) بساط العقيق ص ٨٩ .

(٢) كشف الظنون ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٣) قراضة الذهب ص ٥٠ .

ينم عن أنه كان مؤرخاً . هذا فضلا عن أن الحكم « بالثقة فى التاريخ » لا يكون إلا بعد قراءة المادة التى كتبها المؤرخ ، وبعد عرضها على مقاييس الصحة والتوثيق فأين ما استنتج منه الدكتور بعض ذلك ؟ وحسن حسنى باشا يقرر أن الكتاب الذى نسبه إليه فى هذا الفن مفقود !

٥ — يضاف إلى ذلك كله أن ابن رشيق قال فى باب « ذكر الوقائع والأيام » بكتابه العمدة : « قد أثبت فى هذا الباب ما تأتى إلى من أيام العرب ووقائعهم ، ولم أشرط استقصاءها ، إذ كان فى أقل مما جئت به مقنع ، ولأن أبا عبيدة ونظراءه قد فرغوا مما ذكرت » . [1]

ويقول فى باب « معرفة ملوك العرب » « وأنا أذكر فى هذا الباب من ملوك النواحى من أخذه حفظى وبلغته روايتى ، على شريطة الاقتصاد والتلخيص ». [2]

فترى معى أن الرجل لم يشر إلى أن له كتاب تاريخ ، ولا إلى أنه سيكتب فى التاريخ كتاباً « يقيس فيه عرفانه ، ويطلق فيه للقلم عنانه » وإنما الذى له « معلومات أخذها حفظه وبلغتها روايته » ، « على شريطة الاقتصار والتلخيص ».

وعلى هذا فالرواية قائمة على أوهام المتقدمين الذين ظنوا بعض فصوله فى كتبه ، كتباً مستقلة ، وتبعهم فى ذلك علماء من المحدثين .

وكإثباتهم له كتاب تاريخ ، إثباتهم له كتاب « شرح الموطأ » وليس فى حياة ابن رشيق ما يشتم منه أنه كتب فى الحديث ، لا شرحاً ولا متناً .

وقد أتيح لى فى فبراير سنة ١٩٥٥ ، فى أثناء انعقاد دورة المجمع اللغوى بالقاهرة أن أقابل سعادة حسن حسنى باشا ، فعرضت عليه رأيى فيما جاء بكتابه « بساط العقيق » بهذا الصدد ، فصوب ما ذهبت إليه ، وذكر لى أنه ينوى تصحيح ذلك فى طبعات الكتاب الجديدة ، وهذا خلق العلماء ، إذ لا يعنيهم إلا الحق حيثما بان .

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ٢١٤ .

١٠ ـ ترتيب ما أمكن ترتيبه من آثار ابن رشيق :

لم تصل يدى على الرغم من كثرة التنقيب ، فى المظان التى توقعت أن يكون فيها ذكر لكتب الرجل إلى غير كتابى العمدة ، وقراضة الذهب ، وبعض ما جاء له من شعر متناثر فى كتب الطبقات . وهذه كلمة عن كل من الكتابين .

١١ ـ كتاب العمدة :

ويبدو أنه أول ما كتب ابن رشيق ، إذ يذكر فيه مقدمه على المعز بن باديس ، وإنشاده بين يديه ، وأنه ألفه للسيد الأمجد . . . آبى المظالم . . رجل الخطب وفارس الكتب أبى الحسن على بن أبى الرجال الكاتب [١] فإن وقع منه بموقع ، وحل من قبوله بموضع . . بلغ الإرادات ، ورجا الزيادات :

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب [٢]

وهكذا يبدو أن أول الغيث كان كتاب العمدة ، ثم تلته القطرات الكثيرة .

١٢ ـ رفع الكتب إلى الحكام :

وابن رشيق فى رفعه الكتاب إلى رئيس الديوان ، إنما يجرى على سنة العصر ، من تقديم الكتب إلى رجال السياسة والحكم ، فالجاحظ فى الشرق ، والقالى فى الغرب ، وغيرهم يرفعون كتبهم إلى الحكام ، حتى يضمنوا لها الرواج ، ويضمنوا لأنفسهم الرزق والعطاء ، والحظوة والقربى عند من فى أيديهم أمور الملك وأسباب الحياة .

وإذ رفع الرجل الكتاب إلى أبى الحسن ، ودعا له فى آخره حين قال : وهذه أبيات كنت صنعتها للسيد أبى الحسن أدام الله عزه ، ختمت بها الكتاب لما جاء موضعها :

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٣ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ٦ .

إن الذى صاغت يدى وفمى — وجرى لسانى فيه أو قلمى
مما عنيتُ لِسبْكِ خالصه — واخترته من جوهر الكلم
لم أُهدِهْ إلاَّ لتكسوه — ذكراً تجدده على القدم
لسنا نزيدكَ فضل معرفة — لكنهنَّ مصايدُ الكرم
فاقبل هدية من أشدتَ به — ونسختَ عنه آية العدم
لا نحسب الدنيا أبا حسن — تأتى بمثلك فائق الهمم

إذ كان ذلك — وأبو الحسن مات سنة ٤٢٥هـ . فيمكننا أن نقول بإن الكتاب ألف قبل هذه السنة[١] .

أما بداية التأليف فنحن نعلم أنه وفد على القيروان سنة ٤٠٦هـ. وأنه دخل على المعز بأول مدحة سنة ٤١٠هـ. ويغلب أن يكون دخوله على المعز من طريق أبى الحسن رئيس الديوان ، فيكون الكتاب أُلِّف بعد هذا التاريخ .

وبوسعنا أن نحدد تحديداً أقرب فنقول : إن ابن رشيق يذكر عند حديثه عن موت دعبل الخزاعى بزوياة بنى الخطاب إن « هنالك قبره ، وإلى جانبه قبر عبد الله بن شيخه أبى عبد الله محمد بن جعفر النحوى — رحمه الله — »[٢] فإذا جعلنا دعاءه بالرحمة إنما هو لشيخه — على أساس عود الضمير لأقرب مذكور — دون أن يكون لابن شيخه ، صح أن نقول إن الكتاب ألف بعد سنة ٤١٢ هـ . لأنها السنة التى مات فيها الشيخ أبو عبد الله محمد بن جعفر .

وقد ذهب الميمنى إلى أن « العمدة » ألف بعد سنة ٤٤٩هـ . وهذا أغرب ما رأيت إذ فضلا على ما أسبقت من أدلة ، يستبعد العقل أن يظل ابن رشيق ستين سنة لا يؤلف فيها شيئاً ، حتى إذا اضطربت الأمور ، ووقعت الفتن وأخذ

---

(١) ذكر لى حسن حسنى باشا يوم لقيته سنة ١٩٥٥ أنه رأى على قبر أبى الرجال لوحة كتب عليها أنه توفى سنة ٤٢٦ هـ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ٥٧ .

الرجل يحاول النجاة بنفسه من شرورها ، قال الميمنى – إنه ألف كتاب العمدة، أكبر كتبه .

١٣ – عناية العلماء بالكتاب :

وقد أعجب العلماء بالكتاب منذ ظهر ، فاختصره أبو عمر عثمان بن على بن عمر الصقلى ، قال ياقوت فى ترجمته (وله كتاب مختصر العمدة لابن رشيق، وقال عثمان فى مختصره هذا : « وقد ذكرت السرقات فقال لى –يعنى ابن رشيق– من قصيدة أولها – نقلتها من خطه ، وقد أعلم عليه (ع) وهى علامة لنفسه :

دمع رأى برق الحمى فتحدرا ‌ ‌ وجوى ذكرت له الحمى فتسعرا
لو لم يكن هجرٌ لما عذب الهوى ‌ ‌ أنا اشتهى من هاجرى أن يهجرا
بينى وبين الحب نسبة عنصر ‌ ‌ فمتى وصلت وصلت ذاك العنصرا[1]

وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن عثمان بن على هذا سمى كتابه «العدة» وارتضى الميمنى ذلك ، وكلام ياقوت عندى أولى بالقبول لتفصيله القول على ما تقدم . وقد وقفت أخيراً على هذا المخطوط بمكتبه بلدية الإسكندرية تحت رقم ١٢٩٠ ب .

وكذلك اختصره ونبه على أغلاطه الأعلم الشنتمرى المتوفى سنة ٥٤٩ هـ. وسماه « مختصر العمدة والتنبيه على أغلاطه »[2] .

كما اختصره موفق الدين البغدادى .

أما عناية المحدثين بالكتاب . فتتضح فى أنك لا ترى مؤلفاً يؤلف كتاباً فى البلاغة أو النقد أو الأدب وتاريخه إلا ويستشهد بما كتب ابن رشيق فى العمدة وقل أن يخلو كتاب من نقل عنه أو أخذ منه أو استشهاد به .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٢ ص ١٣٧ والبيت الثانى شبيه بقول المجنون :

إذا كان قرب الدار يورث حسدة ‌ ‌ فلا خير للصب المتيم فى القرب

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٣٥ .

١٤ ــ قراضة الذهب :

واسمه الكامل « قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب » وألفه بعد العمدة بلا شك لأنه يقول فى العمدة « على أن المحدثين شاركوا القدماء فى كل ما ذكرته أيضاً ، كما خالطوهم فى صفات النجوم : وكثير مما لا يتسع له الباب ، ولكنى أفرد له كتاباً قائماً بنفسه أذكر فيه ما انفرد به المحدثون ، وما شاركهم فيه المتقدمون[١] » . أقول وذلك الكتاب ، هو القراضة لأن هذا موضوعه .

ويقول « وأنا أقول إن أكثر الشعراء اختراعاً ابن الرومى ، وسيأتى برهان ذلك فى الكتاب الذى شرطت تأليفه إن شاء الله »[٢] ويحقق هذا الذى أشار إليه فى القراضة[٣] .

وفى القراضة يقول « وفى كتاب العمدة من ذلك جملة صالحة [٤]» وهذا صريح كله فى تقدم العمدة عليها .

ويقول « والحذق فى الأخذ على ضروب أنا ذاكر منها ما أمكن وتيسر ؛ إذ ليست هذه الرسالة موضع استقصاء ، لا سيما وقد فرغت فى كتاب العمدة مما يراد أو أكثر »[٥]

وإذ رجحت قبلا أن العمدة كتب قبل سنة ٤٢٥هـ فإنى أقطع هنا بأن القراضة كتبت بعد سنة ٤٢٧هـ. بسنين عدة ــ قال ابن رشيق . وكنت أنا قد صنعت منذ سنين عدة ــ وقد خرجنا للاستسقاء . فرجعنا وقد انتشر الجراد حتى كاد يحول بيننا وبين الشمس، وشق ذلك على الذى خرج للاستسقاء ، وكان شيخاً صالحاً مات سنة سبع وعشرين بعد القصة بمدة طويلة ، خرجنا

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ٢٣٢ .

(٣) القراضة ص ٣٧

(٤) القراضة ص ٢٠ .

(٥) القراضة ص ٢٩ .

بنية الغيث نستسقى وقد أوحشت وجوه البلاد — صنعت :

بينما نرتجى سحابة مـــزن غشيتنـــا سحابة من جراد
ليس من قلة ولا بخل رب إنما ذاك من ذنوب العباد[١]

١٥ — الأنموذج :

وبعض كتب التراجم تسميه النموذج ، وبعض المترجمين يزعم أن لابن رشيق كتابين بالأسمين وهذا من أوهام المتقدمين .

ومع أن الكتاب لا وجود له ، ولم يقع لأحد من المعاصرين ، فإن منه نقولاً كثيرة تدل على أنه كان موجوداً إلى بداية القرن السادس الهجرى . فابن ظافر المتوفى سنة ٦٢٣هـ . ينقل منه فى مواضع كثيرة بكتابه بدائع البدائه ،[٢] وكذلك ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار .

والكتاب ألف بعد العمدة أيضاً لأن ابن رشيق يقول « والشعراء فى قبولها مال الملوك أعذر من المتورعين ، وأصحاب الفتيا ، لما جرت به العاده قبل الإسلام . . وهذا باب قد احتذاه الكتاب فى زماننا إلا القليل ، وقوم من شعراء وقتنا أنا ذاكرهم فى كتاب غير هذا إن شاء الله » .[٣] فالأرجح أن يكون هذا الكتاب هو أنموذج الزمان فى شعراء القيروان .

١٦ — رسالة كشف المساوىء :

ويبدو أن موضوعها نقد بعض معاصريه كما يدل عليه الاسم ، ويقيناً كتبت قبل قراضة الذهب ، لأن ابن رشيق يقول فى القراضة : « ومما لا يعد سرقة أن تتفق قصة تقتضى صفة بعينها ، كالذى وقع لنا فى رثاء السيدة الجليلة ،

---

(١) قراضة الذهب ص ٥٠ .
(٢) معجم الأدباء جـ ١ ص ٦٥ .
(٣) العمدة جـ ١ ص ٦٧ .

من ذكر حلق الشعور ، ولبس المسوح ، وفى رثاء ابن زمام الدولة من موافقة الكسوف ، وقد بينت ذلك فى رسالة كشف المساوئ »[١] .

وقد حاولت معرفة السنة التى ماتت فيها السيدة الجليلة ، أو التى مات فيها ابن زمام الدولة ، أو التى وقع الكسوف فيها لأحدد سنة كتابة الرسالة ، ولكن لم تسعفنى المصادر .

١٧ ــ القطعة من ديوان ابن رشيق :

وهذه موجودة بمكتبة أسكوربال ، ذكر ذلك أصحاب دائرة المعارف[٢] ، الإسلامية كما ذكره الميمنى[٣] ، ولما كانت بعض شعره فليس فى الإمكان تحديد زمان إنشائها ، فالشعر يصدر عن الشعراء ، ويسير معهم فى حياتهم من أولها إلى آخرها .

وهذا أوان أن نقدم بين يدى القارئ نماذج من إنتاج ابن رشيق شعراً ونثراً.

---

(١) قراضة الذهب ص ٤٩ .

(٢) مجلد (١) عدد ٣ ص ١٨٠ تحت مادة « ابن رشيق » .

(٣) ابن رشيق للميمنى ص ٨٣ .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن رشيق

١ – ابن رشيق الناثر

رسالة

كتب الشيخ أبو على الحسن بن رشيق الأزدى إلى أبى الحسن على بن القاسم اللواق رحمهما الله وكانت له عنده أياد ونعم [١] :

« أمتَّعَ الله إخوانك ببقائك، وكفاهُم الاساءةَ فيك ، وجعلنى من بينهم الفداءَ لك . وأسأل الذى شرَحَ للعلم صدرَك ، وعمر بالذكر قلبَك ، وبسط بالحُجّة لسانَك، وبالخير يدَك، وقرَن بالسَّداد قولك، وبالسَّداد [٢] عملَك ، أن يجرى مناظرك فى حسن الأدب على رَسْمِك ، ويجعل الإنْصاف كما تُؤثر حكَمًا بينك وبين خصْمِك، وقد بلغنى أعزّك الله – أنك استحسنت معنى البيتين من مرثية الأمير سيدنا أبى منصور ، وهما الأخيران من هذه الأربعة الأبيات :

ألَمْ يرهُم كيف استقلّوا [٣] ضحى إلى كنفٍ من رحمة الله واسعِ

إمام خميس ماج فى البرّ بحرُه يسيرُ كمتن اللّجــة المتدافع [٤]

إذا ضربت فيــه الطبول تتابعت به عِذبٌ تحكى ارتعادَ الأصابع [٥]

---

(١) النص من رسالة له فى السرقات «واسمها قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب» وسبقت الإشارة إليها .

(٢) السداد : الرشاد والصواب .

(٣) استقلوا : نقلوا وحملوا .

(٤) الخميس الجيش ، وماج فى البر بحره .. إلخ . كناية عن كثرة جنده والبيت بعده يكمل الصورة.

(٥) من تمام وصف الجيش بالكثرة وكذا البيت بعده .

تجاوبَ نَوْحٌ بات يندب شجوه   وأيدى ثكالى فوجئت بالفواجعِ

وأن بعض من لا خَلاقَ له فى الأدب ، ولا معرفة له بحقائق الكلام ، عارضك فيهما بالطعْن ، ونازعك معناهما بالجهْل وادّعى عليهما ضربًا من السرق ونوعًا من الأخذ — ولم تؤت — أيدك الله — من قصر لسان ، ولا ضعف حجة وبيان ، لكنما أُتيت من سوء فهم صاحبك وقلة إنصاف مشاغبك » .

تحليل لظاهرة سلوكية

وكتب تحت عنوان باب العتاب فقال يبين حقيقة العتاب وما يجر إليه إذا لم يتلطف فيه :

العِتاب وإن كان حياة المودّة ، وشاهدَ الوفاء فإنه بابٌ من أبواب الخديعة يسرع إلى الهجاء ، وسببٌ وكيدٌ من أسباب القطيعة والجفاء ، فإذا قلّ كان داعية الأُلْفة ، وقيد الصُّحْبة ، وإذا كثر خشن جانِبُه وثقل صاحِبُه ، وللعتاب طرائقُ كثيرة وللناس فيه ضروبٌ مختلفة . فمنه ما يمازجُه الاستعطافُ والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاجُ والانتصاف وقد يعرض فيه المَنّ والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف . وأحسن الناس طريقًا فى عتاب الأشراف ، شيخ الصناعة ، وسيّد الجماعة أبو عبادة البحترى الذى يقول :

يَريبُنِيَ الشيء تأتى بــه   وأُكْبِر قَدْرَكَ أنْ أسترِيبا[1]
وأكــره أن أتمادَى على   سَبيل اغترارٍ فألقى شَعُوبا[2]
أكذّبُ ظنىّ بأنْ قد سخطتَ   وما كنتُ أعهدُ ظنى كذوبا
ولو لم تكنْ ساخطًا لم أكنْ   أذمُّ الزمانَ وأشكو الخطوبا
ولا بُدّ من لومــة أنتحى   عليك بها مخطئًا أو مصيبا

---

(١) رابه الأمر إذا شك فيه .

(٢) الشعوب : المنية هو اسم غير متصرف .

أيصبحُ ورْدىَ فى ساحتَيْكَ طروقا ومَرعاى مَحْلا جديبا[١]
أبيـع الأحبةَ بيعَ السوامِ وآسى عليهم حبيبًا حبيبا
ففى كل يوم لنا موقفٌ يُشقّقُ فيه الوداعُ الجيوبا[٢]
وما كان سُخْطلك إلا الفراقَ أفاض الدموعَ وأشجى القلوبا[٣]
ولو كنتُ أعلم ذنبًا لما تخالجنى الشك فى أن أتوبا
سأصبِر حتى ألاقى رضا ك إمّا بعيداً وإمّا قريبا
أراقب رأيك حتى يصح وانظرُ عطفك حتى يؤوبا

الفأل والطيرة

وكتب تحت عنوان باب من الزجر والعيافة فقال :

« وعنهما يكون الفأل والطيرة ، وبين الطيرة والفأل فرقان عند أهل النظر والمعرفة والحقائق ، وذلك أن الفألَ تقوية للعزيمة ، وتحضيضٌ على البغية ، وإطماع فى النية ، والطيرة تكسر النية وتصدّ عن الوجهة ، وتَثْنى العزيمة . وفى ذلك ما يعطل الإحالة على المقادير ، وقد تفاءَلَ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ونهى عن الطيرة فى قوله « لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ، ولا صفر ... » والطيرة من أحد شيئين مشتقة ، إما من الطيران كأن الذى يرى ما يكرهُ أو يسمعُ يطير كما قال بعضهم :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى
وصوّتَ إنسانٌ فكدت أطيرُ[٤]

---

(١) الورد مكان ورود القوم للاستقاء ، والمحل والجديب : الذى لا زرع فيه ولا ضرع كناية عن الخراب .

(٢) جيب الثوب طوقه وفتحته التى يلبس منها وعليه قول الشاعر :

فشق على الجيب بانبه معبد

(٣) أشجى القلوب : أحزنها .

(٤) استأنست بالذئب : اطمأننت له .

وإما من الطير وهو الأصل والمختار من الوجهين . هكذا ذكر الزجاجى . . وكانت العرب تزجُر الطير والوحش ، فمن قال بالقول الأول احتجّ بأن الوحش يطير بها . . ومن قال بالقول الثانى قال : إنما كان الأصل فى الطير ثم صار فى الوحش ، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويردان جميعاً ، أنشد الجاحظ :

ما يعيف اليومَ فى الطير الروَح   من غراب البين أو تيس بُرَح

قال ، فجعل التيسَ من الطير إذ قدم ذِكْرَ الطير ، وجعله منها فى معنى التطير . . . والسَّانح الذى يلقاك وميامنه عن ميامنك ، والبارح الذى يلقاك وشمائله عن شمائلك ، والجابه والنَّاطح اللذان يستقبلانك ، والقعيد الذى يأتيك من ورائك . . .

٢ ــ ابن رشيق الناقد :

نقد وتحليل

تدور مباحث كتاب العمدة لابن رشيق حول النقد والبلاغة كما أسبقت وله فى ذلك الباع الذى لا يطاول ــ وهذه عينة من نقده وتحليله .

كتب تحت عنوان باب النظم ، يذكر قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جوادا للذة   ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال(١)

ولم أسْبأ الزقّ الرّوىّ ولم أَقل   لخيلى كرى كرةً بعد إجفال(٢)

فقال :

وكان قد ورد على سيف الدولة رجلٌ بغدادى يعرف بالمنتخب لا يكاد يسلم منه أحد من القدماء والمحدَثين ، ولا يذكر شعر بحضرته إلا عابَه ، وظهر

(١) تبطن الدابة شد بطانها وهو الحزام ، وتبطن الشيء دخل فيه والمعنى لاقى الكواعب والكاعب : الفتاة نهد ثديها وبرز .

(٢) سبأ الخمر : شراها ليشربها ، والروى الذى يروى ، ومنه شراب روى : فعيل بمعنى فاعل وأجفل الحصان إذا حرن من قوة أو شراس .

على صاحبه بالحجة الواضحة . فأُنشِد يوماً هذين البيتين فقال : قد خالف فيهما وأنشد . أما لو قال :

كأنىَ لم أركب جواداً ولم أقل لخيلىَ كرّى كرّةً بعدإجفالِ
ولِم أسبأ الزّقّ الروِىّ للذة ولم أتبطن كاعبا ذاتخلخال

لكان قد جمع بين الشيء وشكله : فذكر الجود والكر فى بيت ، وذكر النساء والخمر فى بيت . . . — قال ابن رشيق — فالتبس الأمر بين يدى سيف الدولة وسلموا له ما قال . فقال رجل ممن حضر : ولا كرامة لهذا الرأى : الله أصدق منك حيث يقول : « إنّ لك ألاّ تَجوعَ فيها ولا تَعْرَى ، وأنَكَ لا تظمأُ فيها ولا تَضْحَى » . فأتى بالجوع مع العرى . ولم يأت به مع الظمأ ، فسرّ سيف الدولة وأجازه بصلَة حسنة . قال صاحب الكتاب — يعنى ابن رشيق — قول امرئْ القيس أصوب ومعناه أعز وأغرب ، لأن اللذة التى ذكرها ، إنما هى الصيد ، هكذا قال العلماء ، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء فجمع فى البيت الأول معنيين ، ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة ، وفضيلة شريفة تدلّ على السلطان ، وكذلك البيت الثانى لو نظمه على ما قال ، لكان ذكر اللذة حشواً لا فائدة فيه لأن الزق لا يُسبأ إلا للذة ، فإن جعل الفتوة كما جعلناه فيما تقدم الصيد ، قلنا فى ذكر الزقّ الروىّ كفاية ، ولكن امرأ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملك والرفاهة .

وأما احتجاج الآخر بقول الله عز وجل فليس من هذا فى شيء لأنه أجرى الخطاب على مستعمل العادة ؛ وفيه مع ذلك تناسب لأن العادة أن يقال : جائع عريان ، ولم يستعمل فى هذا الموضع ظمآن ولا عطشان ، وقوله تعالى تظمأ وتضحى متناسب لأن الضاحى هو الذى لا يستره شيء عن الشمس ، والظمأ مِن شأن مَن كانت هذه حاله . . . وقال الجاحظ : فى القرآن معان لا تكاد تفترق من مثل الصلاة والزكاة ، والخوف والجوع ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس ، والسمع والبصر . . .

ومن الشعراء من يضع كل لفظة موضعها ، لا يعدوه ، فيكون كلامه ظاهراً غير مُشْكل ، وسهلاً غير متكلَّف ، ومنهم من يقدّم ويؤخّر إما لضرورة وزن ، أو قافية وهو أعذر ، وإما ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام ، ويقدر على تعقيده ، وهذا هو العيّ بعينه ، وكذلك استعمال الغرائب التى يقل مثلها فى الكلام ، فقد عيب على مَن لا تعلق به التهمةُ نحو قول الفرزدق :

على حالة لو أن فى البحر حاتماً   على جوده ما جاد بالماء حاتمِ

فخفض حاتماً — الأخيرة — على البدل من الهاء فى « جوده » حتى رأى قوم من العلماء أن الإقواء[1] فى هذا الموضع خير من سلامة الإعراب مع الكلفة[2] . . .

٣ — ابن رشيق الشاعر :

وكل ما نقدمه بين يدى القارئ من شعر الشاعر ، فمنثور فى بطون الكتب ، وخاصة التراجم والطبقات ، ولم يجمعه ديوان خاص به ، وقد حاول جمع منثوره هذا ، أبو البركات عبد العزيز الميمنى الأستاذ بالكلية الشرقية فى لاهور ، الهند . وقد اعتمدت عليه كثيراً فيما أقدم :

(١) الوصف :

زرافة

اهديت إلى المعز بن باديس زرافة رآها ابن رشيق فقال فيها :

ومجنوبةٍ أبداً لم تكـن   مذلّلةَ الظهـرِ للراكبِ[3]

(١) الإقواء : هو مخالفة بعض الأبيات لبعض فى حركة الروى بالضم والكسر مثلا .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٧٤ ط هندية .

(٣) المجنوب والجنيب : فرس كان فرسان العرب يسوقونه إلى جنب فرسهم الذى يركبون ليستبدلوه به ، ولم تكن مذللة الظهر ؛ أى لم تعد للركوب .

قد اتصل الجيدُ من ظهرها ... بمثل السَّنام بلا غاربِ[1]
مُلمّعــة مثل ما لُمِّعَتْ ... بحنـاءِ وشيٍ يدُ الكاعبِ
كأن الجـواريَ كنَّفتَها ... لخالخَ من كلّ ما جانب[2]

هلال رمضان

وقال يصف هلال رمضان و يشير إلى ما بنفسه نحوه إذ يلزمه الصيام والبعد عن الشراب :

لاح لى حاجبُ الهلال عشيًّا ... فتمنيتُ أنـنى من سحاب
قلت : أهلاً وليس أهلا لما قلـ ... ـت ولكن أسمعتها أصحابى
مظهراً حبَّه وعندىَ بغض ... لعدوّ الكئوسِ والأكواب

بحر هائج

وله فى وصف البحر وقد ركبه إلى صقلية فعصفت الرياح ، وثارت الأمواج ولكن لم ينسه ذلك ذكر المحبوبة وتخيل مناجاتها :

ولقد ذكرتكِ فى السفينة والردى ... متـوقّعٌ بتلاطم الأمواج[3]
والجو يهطِلُ والرياحُ عواصفٌ ... والليـل مسودُّ الذوائبِ داجِ[4]
وعلى السواحل للأعادى غارة ... يتوقعـون لغـارة وتناجِ
وعلت لأصحاب السفينة ضجةٌ ... وأنا وذكرك فى ألذ تناجِ[5]

---

(١) الغارب ما بين السنام والعنق .

(٢) كنف الشيء إذا حاطه ليصونه ، وكنف الإبل عمل لها حظيرة .

(٣) الردى : الهلاك .

(٤) الذوائب جمع ذؤابة وهى خصلة من الشعر فى مقدم الرأس .

(٥) التناجى : المسارة بالأحاديث ، والنجى : السر ، ومن تفاوضه بالسر .

الثريا

وقال يصف الثريا :

يا حبَّذا من بنات الشمس سائلةٌ على جوانبها تهفو المصابيحُ
كأنهـــا ربوةٌ صمّاءُ كلّلها نَوْرُ البَهار وقد هبت لها ريحُ

فواكه وزهور

وله فى التاريخ ، ووصف الزهور والنور والرياحين مما أجاد فيه أيما إجادة :

ودوحة نارنج بُهِتنا بحسنها وقد نشرت أغصانَها للتأوّدِ (١)
ونارنجُهـــا فوق الغصون كأنه نجوم عقيق فى سماء زبرجدِ (٢)

وقريب منه قول ابن المعتز :

وكأنمـــا النارنجُ فى أغصانه من خالص الذهب الذى لم يخلطِ
كرةٌ رماها الصولجان إلى الهوا فتعلقت فى جوّه لم تسقطِ

وله يصف البنفسج :

بنفسجٌ جاءكَ فى حين لا حرّ يُرَى فيه ولا فَرْط بَرَدْ
كأنـــه لمـــا أتينـــا بـــهِ منغمسُ الأثواب فى اللازوَرْدْ

وله فيه أيضاً :

رأيت شقيقـــةً حمراء بادٍ على أطرافها لطخ السَّوادِ
يلوحُ بها فأحْسَن ما تراهُ على شَفَة الصبيّ من المدادِ

---

(١) التأود : التثنى .

(٢) العقيق : حجر كريم أحمر اللون ، والزبرجد : أخضره .

(٣) اللازورد : زهر .

وقال فى الموز :

لله موزٌ لذيذٌ يعيذه المستعيذُ
فواكهٌ وشرابٌ به يُداوى الوقيذُ(١)

رحلة

وقال فى السفر والارتحال :

وماءٍ بعيدِ الغَوْر كالنَّجمْ فى الدُّجَى
وردتُ طروقًا أو وردتُ مهجّرا
على قدمٍ أخت الجناح وأخمص
يخال حصا المعْزَاء جَمْراً مُسَعَّرا(٢)
فريداً من الأصحاب صَلْتا من الكُسا
كما أسلم الغمدُ الحسامَ المذكرا(٣)

خال جميل

وله فى وصف خال بدا تحت لحى صاحبه :

حبذا الخالُ كامنا منه بين ال سجيد والخد رقبةً وحِذارا
رام تقبيلَه اختلاسًا ولكن خاف من سيف لحظه فتوارى

(١) الوقيذ : الصريع أو المشرف على الموت .

(٢) أخت الجناح : يريد السرعة . والأخمص : الضامر البطن وذلك من صفة الجمال فى الخيل ، المعزاء ، الأمعز من الأرض : الصلب الكثير الحجارة والحصى .

(٣) صلتا من الكسى : وصف للفرس يريد أنه أجرد من الشعر وتلك أيضاً من شيات الأصالة فى الخيل قال امرؤ القيس :

وقد اغتدى والطير فى دكناتها بمنجر قيد الاوابد هيكل

مطلع الفجر

وله من الرجز فى طلوع الصبح :

كأنمــا الصبحُ الذى تفرّى
ضمَّ إلى الشرق ، النجومَ الزُّهرا
فاختلطت فيــه فصارت فجرا

الطبيعة فى الشتاء

ووصف الغيم والمطر والبرق فقال :

خليلىَّ هل للمُزْنِ مقلة عاشقٍ ... أم النارُ فى أحشائها وهى لا تدرى
سحابٌ حكتْ ثكلى أصيب وحيدها ... فعاجت له نحو الرياض على قبر (١)
تُرَقرِق دمعًا فى خدودٍ توشحت ... مطارفِها بالبرق طُرْزا من التبر (٢)
فَوَشْىٌ بلا رَقْم ونَسجٌ بلا يدٍ ... وَدمْعٌ بلا عين وضِحكٌ بلا ثغر

أترجة

قال ابن بسام فى الذخيرة : دخل ابن رشيق على المعز بن باديس يوماً ، وفى يده أترجة كأنها واسطة ذهب ، أو جذوة لهب ، قال ابن رشيق : فأشار إلى بوصفها فقلت الخاطر :

أُتْرُجَّةٌ سَبْطَةُ الأطرافِ ناعمةٌ
تَلْقَى النفــوس بحظ غيرِ منحوس
كأنما بَسَطتْ كفًّا لخالقها
تدعــو بطــول بقاءٍ لابن باديس

---

(١) عاج : مال .

(٢) طرزا : جمع طراز وهو القطعة من النسيج . والتبر : الذهب ، توشحت : تغطت والمطارف الأردية وفى البيت تشبيه بديع لسحاب ينزل منه المطر ويلمع فى جنباته البرق كالذهب .

غلط الليل

وله فى طول الليل :

قد طال حتى خلتُه من كل ناحية وسطْ
وتكررت فيه المنازل مِنْه لامنِّى الغلط

الطبيعة

وقال فى كتابه الأنموذج ، خرج أبو العباس ابن حديدة القيروانى فى جماعة من رفقائه طالباً التنزه ، فحلوا بروضة قد سفرت عن وجنات الشقيق وأطلعت فى زبرجد الأرض الخضراء نجوماً من عقيق ، والجو قد أفرط فى تعبيسه ، ونثر لغيظه جميع ما كان من لؤلؤ القطر فى كيسه ، فقال ابن حديدة .

أو ما ترى الغيث المعرِّس باكيا يُذْرِى الدموعَ على رياض شقيق[1]
فكأن قَطْر دموعه من فوقها دُرٌّ تبدَّدَ فى بساط عقيق[2]

قال ابن رشيق — وأنشد نيهما فأجزتهما بأن قلت :

فاجمع إلى شكليهما بزجاجة شكلين من حَبَب وصفو رحيق
فكأنما انتصرا لعَبْرة عاشق مُهَرَاقة فى وَجْنَتَىْ معشوق[3]

وله أيضاً فى المعنى نفسه :

نظرتُ إلى البستان أحسن منظرٍ وقد حجب الأغصانُ شمس المشارق
بــه زوج رمان يلوح كأنه قناديل تِبر محكمات العلائق

طير أبابيل

وقال فى الصيد :

طيرٌ أبابيلُ جاءتنا فما برحت إلا وأقواسُنا الطيرُ الأبابيل[4]

---

(١) رياض شقيق : الشقيق زهر أحمر برى ، ومنه شقائق النعمان ، المعرس : المقيم يريد المتواصل هطوله .

(٢) بساط العقيق يريد به الخضرة تكسو الأرض . ويريد بالدر قطر الغيث على التشبيه .

(٣) هراق الماء إذا صبه وأراقه ، والوجنة ما ارتفع من الخدين وجمعه وجنات .

(٤) أبابيل : كثيرة .

ترميهمُ بحصى طـــير مسوّمة كأن معدنها للرمى سجيل[١]
تعدو على ثقة منا بأطيبهـــا فالنارُ تُقْدَحُ والطَّنْجير مغسول[٢]

مناجاة

وقال فى الليل وقد طال :

أقول كالمأسورِ فى ليلـــة ألقتْ على الآفاق كلكالَها[٣]
يا ليلـــةَ الهجو التى ليتَها قطّع سيفُ الهجر أوصالها
ما أحسنتْ جُمْلاً ولا أجملت هذا وليس الحسن إلا لها

تفاحة

ووصف تفاحة فقال :

تفاحـــةٌ شاميّـــةٌ من كف ظبي أكحل
ما خلقت مذ خلقت تلك لغير القبَلِ
كأنمـــا حمرتُهـــا حمـــرةُ خد خجِلِ

ذكور الحجل

وقال وأبدع فى وصف اليعاقيب وهى ذكور الحجل ذلك الطائر الطيب اللحم الجميل الخلق الحسن الزينة .

ما أغربت فى زِيهـــا إلا يعاقيب الحَجَل
جاءتك مثقـــلةَ الترا ثب بالحلِىّ وبالحُلَل

---

(١) مسومة : معلمة . والسجيل حجارة كالطين اليابس .

(٢) الطنجرة : قدر من نحاس ، وهى من الدخيل ، الطنجير : لنفس المعنى . وفاعل تعدو هو ضمير الأقواس فى البيت الأول .

(٣) المأسور : من وقع فى الأسار . والكلكال والكلكل شىء واحد .

صفر العيون كأنها باتت يتبْر تكتحل[١]
وتخالهـا قد وكلت بالنون والصوت الزجِل
وكأنمـا باتت أصا بعها بحنّـاء تُعَلّ
من يستحلّ لصيدها فأنا امرؤ لاّ أستحل

هدية من هدايا الملوك

وقال رحمه الله فى العمدة : وصنعت أنا فى زرافة أتت فى الهدية من مصر إلى مولانا – المعز من قصيدة طويلة :

وأتتك من كسب الملوك زرافةٌ شتّى الصفاتِ لكونها إثناء
جمعت محاسن ماحكت فتناسبت فى خلقها وتنافت الأعضاء
تحتثها بين الخوافق مشيــةٌ باد عليها الكبْر والخيلاء[٢]
وتمد جيداً فى الهواء يزينهـا فكأنه تحت اللواء لـواء
حطت مآخرُها وأشرف صدرُها حتّى كأن وقوفها إقعاء[٣]
وكأن فهرَ الطيب مارجَمَت به وجهَ الثرى ، لو لمّت الأجزاء[٤]
وتخيرت دون الملابس حلـةً عَيّت لصنعة مثلها صنعاء[٥]
لونًا كلون الزّبل إلا أنـه حَلْىٌ وجزّع بعضه الجلاّء
أو كالسحاب المكفهرة خيّطت فيه البروقُ ؛ وميضها الإيماء
أومثل ما صدئت صفائح جوشن وجرى على حافاتهن جلاء[٦]
نعم التجافيف التى أدرعت به من جلدها لو كان فيه وفاء

(١) التبر : الذهب يريد صفرة عينه . (٢) تحتثها : تحثها على المسير .
(٣) الإقعاء : جلوس الكلب على مؤخرته قالوا :
يقعى جلوس البدوى المصطلى
(٤) فهر الطيب : الفهرة حجر رقيق تسحق فيه الأدوية ويريد الشاعر به ماسس الأرض قوائمها . لمت الأجزاء : جمعت .
(٥) صنعاء : هى صنعاء اليمن ، مدينة شهرت بصناعة النسيج المنقوش . وعيت : عجزت .
(٦) الجوشن : الدرع .

فى حمام

وقال يصف جماعة فى حمام من حمامات العصور البائدة . والتى لا تزال منها بقية فى أحياء القاهرة القديمة ، وكذا فى دمشق :

ومرتهنٍ لدى الحمام أضحى وحالاه كأصحاب السعيرِ
إذا سئموا العذابَ أو استغاثوا أغاثوهم ببابِ الزمهريرِ
كذلك حاله حَرًّا وبَرْداً ببيتِ الحوضِ أو بيتِ الطهورِ[1]

(ب) الملح والنوادر :

وهو باب وضعنا تحته كل شعر فكه طريف ، وإن أمكن وضعه تحت باب آخر .

إن شر الدواب

قال يوصى بالبغل :

فأوصيكمُ بالبغل شرًّا فإنه من العَيْر فى سوء الطباع قريبُ
وكيف يجىء البغلُ يومًا بحاجة تَسُرُّ وفيه للحمار نصيب ؟

الثريا

وجمعه يوماً وعبد الوهاب بن محمد الأزدى المعروف بالنقال مجلس ، فأنشده ابن رشيق قوله من قصيدة :

والثريا قبالةَ البدرِ تحكى باسطًا كفَّه ليقبض جاما[2]

وقوله :

رأيت بَهرام والثريا والمشترى فى القران كرة
كراحة خُيِّرت فحارت ما بين ياقوتة ودرة

---

(١) بيت الحوض وبيت الطهور : مكانان فى الحمامات العامة أولهما يملأ بالماء الساخن لإزالة ما علق على الجسوم من درن ، والثانى يملأ بالماء البارد للتطهر قبل مغادرة الحمام .

(٢) الثريا : سبعة كواكب فى عنق الثور ، والجام : الكاس .

فاستظرف الشعر عبد الوهاب وأنشده :

يا ساقىَ الراحِ اسْق صحبي ... وواسنى إننى أواسى
وانظر إلى حيرة الثريا ... والليلُ قد شُدَّ بأمراس[1]
ما بين بهرامها الملاحى ... وبين برجيسها المواسى
كأنها راحة أشارت ... لأخذ تفاحة وكاس

وكأنما كانت بينه وبين البغل صلة ، فما أكثر ما يقول فيه ، ومن ذلك قوله وقد ركب بغلة :

كَأنى بعض نجوم السماء ... تَصَعَّدَ فى الجو ثم انحدر
على رَسْلةٍ من هبات الملوك ... سفواء ململومة كالحجر[2]
تعاوَنَ فى جدْل أعضائها ... بنو أخدر وبنات الأغر[3]

بغلة سفواء

وفى البغال أيضاً :

أو بغلة سفواءَ تعرض للفتى ... فتُخالُ تحت السرج أمَّ غزال
سألتْ إلى الأم النجابة من أب ... وزهت على الأعمام والأخوال
وكأنها قد أفرغت فى قالبَ ... لا أنها خلقت على تمثال

وله فى التلاعب بالفة فصحف الدينار والدرهم :

صحفت دالين من دي ... نار يلوح ودرهمْ
فقال لى ذلكم « ذى ... نار » وذا قال « ذرهمْ »

---

(١) الأمراس : الحبال .

(٢) يريد قليلة شعر الناصية ، وذلك من علائم النجابة فى الخيل والبغال .

(٣) بنو اخدر يقصد الحمار الوحشى أو الحمار الأسود ، وهذا أقرب ، وبنو الأغر يريد به كرام الخيل وذلك أن البغل يأتى من وقوع حصان على أتان أو حمار على فرس .

وله أيضاً فى وصف بغلة :

إذا أقبلت أقعت وإن أدبرت كبت
وتعرض طولا فى العنان فتستوى[١]
وكلفت حاجاتى شبيهة طائر
إذا انتشرت ظلت لها الأرض تنطوى

(حـ) الحكمة :

وذلك باب لابن رشيق فيه شعر كثير منثور فى كتبه ، وفى غيرها من الكتب التى عرضت له . وقد اخترت له منه :

فى الإعراض عن الجاهل

قال فى الإعراض عن الجاهل :

أيها الموحى إلينا نفثة الصل الصموت[٢]
ما سكتنا عنك عيا رب نطق فى السكوت
لك بيت فى بيوت مثل بيت العنكبوت
إن يهن وهنا ففيه حيلتا سكنى وقوت[٣]

لعنة الشيطان

وقال فى التحريض على مخالفة الشيطان بعد أن صور مداخله على الإنسان :

أرى الشيخ إبليس ذاعلة فلا برأ الشيخ من علته
يقود على الحب مستيقظا ويأتيك بالليل فى صورته

---

(١) اقعت : وقفت على مؤخرتها صنع الكلب فى جلسته .
(٢) الصل الصموت : الحية والداهية .
(٣) الوهن : الضعف .

فيؤتيك ما شاءَ من نفسهِ ويبلغُ ما شاء من لذّتِهْ
ومن كان ذا حيلة هكذا تَمثّل للمرء فى يقْظتهْ
فلا تَزْجُروا دونه لعنةً لأن رضا الله فى لعنتِهْ

وشاورهم فى الأمر

وله فى أدب المشاورة :

أشاورُ أقوامًا لآخذَ رأيهمْ فيلوونَ عنّى أعينًا وخُدودا(١)
وليس برأيِ حاجةٌ غيرَ أننى أونّسه كيلا يكون وحيدا(٢)
ولا أنا ممّنْ يبعثُ السّهم راميًا إلى غرض حتّى يكون سديدا
فلا يتهمْ عقلى الرجالُ ، فاننى أعرفهم أنى خُلقتُ ودودا

تجربة وخبرة

وقال عن تجاربه وكيف عزم على القصد فى النفقة ولكن نفسه لم تطاوعه :

قد أحكمتْ منى التجار ب كل شىء غيرَ جودى
أبداً أقول لئن كسب تُ لأقبضن يَدىْ شديدِ
حتّى إذا أثريتُ عُد تُ إلى السّماحة منجديدِ
إن المُقام بمثل حا لى لا يتمُّ مع القعودِ
لا بُدَّ لى من رحلة تُدنى من الأمل البعيدِ

عزة وإباء

قال فى الانتصاف النفس :

إذا لم تجد بدًّا من القول فانتصفْ
بحد لسان كالحسام المهنّدِ

---

(١) لوى عنى وجهه : إذا أعرض .

(٢) أونسه : أجعل له مؤنساً من رأى غيرى قال الشاعر :

فرأيان أحسن من واحد ورأى الثلاثة لا ينقض

فقد يَدْفَعُ الإنسانُ عن نفسه الأذى
بِمِقْولهِ إن لم يدافعه باليدِ(١)

وقال فى قريب من هذا :

خذ العفو ، وأبَ الضيم ، واجتنب الأذى
وأغْضِ تسد ، وارفق تنل ، واسخ تُحمد(٢)

الناس معادن

وقال عن الناس ومذاهبهم :

فى الناس من لا يُرتجى نفعُه إلا إذا مُسَّ بإضرارِ
كالعودِ لا يُطمع فى طيبه إلا إذا أحرِق بالنار

عش عزيزاً

وله أيضاً :

الأسْر خيرٌ من الفرارِ والقتل خيرٌ من الإسـار
وشرُّ ما خِفْتَه حياةٌ أدّت إلى ذلّة وعارِ

وقال فى خيانة الأصدقاء :

صديق المرء كالدينارِ طبعًا وكيف يفارقُ المرءُ الطباعا
تراه إذا أقام يقم جاها وإن فارقْته أجدى انتفاعا

حسن معاملة

وله فى الإخوان :

من جفانى فإننى غيرُ جافٍ صلةٌ أو قطيعةٌ فى عفاف
ربما هاجر الفتى من يصافـ ـيه ولاقى بالبشر من لا يصافى(٣)

---

(١) المقول : اللسان .

(٢) الضيم : المذلة والهوان . وأغضى عن الأمر : إذا لم يعره بالا .

(٣) هاجر : هجر .

نصيحة

وله ينصح :

اخترْ لنفسك من . تُعا دى كاختيارك من تصادقْ
إن العدوْ أخو الصدي ق وإن تخالفت الطرائق

ويقول فى موقف آخر :

اصْحَبْ ذوى القدر واستَعْذبهم وعَدِّ عن كل ساقط سَفِله
فصاحبُ المرءِ شاهدٌ ثقة يُقضى به غائبا عليه وله
ورقعة الثوب حين تلبسه شهرته ، أو تكون مُشتكلَه[1]

حسن سياسة

ويقول فى صلاته بالآخرين :

أحبّ أخى وإن أعرضتُ عنه وقلّ على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيبُ راض كما قطبتَ فى إثر المدام[2]
ورب تَقَطبٍ من غير بغْضٍ وبغضٍ كامن تحت ابتسام

ونختم هذا الباب بقوله الناتج عن خبر الحياة :

لو قيل لى خذ أمانا من حادثات الزمان
لما أخذت أمانًا إلا من الإخوانِ

---

(١) مشتكلة : مشاكلة الثوب فى لونه وجنسه .

(٢) التقطيب : التكشير . والمدام والمدامة : الخمر .

(د) الغزل :

لوعة

وله فى هذا الباب شعر فيه تكشف سنمسك عن ذكره ونعرض عليك ما لا يجرح الحياء .
قال ، وفيه مبالغة طريفة :

إن كنتَ تنكر ما منك ابتليتُ به
فإن بُرء سِقامى عزّ مطلبُه
أشرْ بعودٍ من الكبريت نحو فى
وانظر إلى زَفَراتى كيف تُلهبه(1)

ليلة

وقال : كما قال الميمنى – فى غرض يظهر من الأبيات :

ومن حسنات الدهر عندىَ ليلةٌ من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونا بها ننفى القَـذَى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهبا سكبا(2)
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير تلتقط الحبا(3)

سمراء

وقال يصف سوداء ويدعوها للاعتزاز بسوادها :

دعا بكِ الحسنُ فاستجيبى يا مِسكُ فى صبغة وطيب
تيهى على البيض واستطيلى تيهَ شبابٍ على مشيب

---

(1) الزفرات جمع زفرة وهى التنفس مع مد النفس .

(2) القذى : ما يصيب العين من رمص : ذهبا سكبا : مسكوباً .

(3) جنوح الطير : ميلها ويقال جنحت السفينة إذا انحرفت .

ولا يرعْكِ اسودادُ لونٍ كمقلةِ الشادن الربيب[١]
فإنما النور عن سوادٍ فى أعين الناس والقلوب[٢]

شوق ولوعة

وله فى النسيب وقد برح به الشوق :

من ذا يعالج عنى ما أعالجه من حرّ شوق أذاب القلب لاعجه[٣]
ومن يكنْ لرَسيس الشوق داخله بكنْ لفرط الضنى والسقم خارجه[٤]
كادت خلاخيل من أهوى تبوح به
سرا وغصت بما فيها دمالجه[٥]

زيد وعمرو

وقال وأبدع فى وصف الحبيبة وبيان مفاتنها فى أجمل صورة جعلتها شغله واشتغاله .

بين أجفانك سحرُ ولأغصانك بدرُ
جردتْ عيناك سيفيـ ـن ، لذا أمرك أمر

---

(١) الشادق : الغزال . الربيب : ابن الزوج ، وهنا المربوب المربى فى النعمة .

(٢) قال ابن رشيق أخذته من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :

مشبهات الشباب والمسك تفد يهن نفسى من الردى والخطوب
كيف يهوى الفتى البيب وصال البيض ، والبيض مشبهات المشيب

وعلق الشريشى على ذلك فقال : وأخذ بيته الآخر من قول الآخر ، أنشده الجاحظ أيضاً :

وإن سواد العين فى العين نورها وما لبياض العين نور فيعلم

وفى المعنى أيضاً قول ابن رباح :

وسوداء الأديم إذا تبدت يرى ماء النعيم جرى عليه
رآها ناظرى قصبا إليهـــا وشبه الشىء منجذب إليه

وقد أكثر الشعراء من الخوض فى المفاضلة بين البيض والسود .

(٣) لاعج الشوق : شديده .

(٤) الرسيس : أول الشىء . فرط الضنى : غاية السقم .

(٥) الدمالج ج . دملج والدملج : حلى يلبس فى المعصم كالأساور .

فعلى خديك من نَـزْ ف دم العُشاق أُثر
ومن الكثبان شطرٍ لك والأغصان شطرٍ
وسواء قلتُ درٌّ ما أرى أو قلتُ ثغرُ
و بماذا أصف الخـصْ ر وما إن لك خصر [1]
بلك شغـــلى واشتغالى ومضى زيد وعمرو

عبرة وبكاء

وقال فى موقف وداع وقد اختفى فى الحمام ليبكى فى غفلة الرقباء :

ولم أدخل الحمام ساعةَ بينهم لأجل نعيم ، قد رضيت ببوس
ولكن لتجرى عبرتى مطمئنةً فأبكى ولاَ يدْرِى بذاك جليسى

فتنة

وله فى الجفون :

وفاتن الأجفان ذى وَجنة [2] كأنها فى الحسن وردُ الرياض
قلت له : يا ظبى خذ مهجتى داو بها تلك الجفون المراض
فجاوبتْ مِن خده خجلةٌ كيف ترى الحمرة فوق البياض!

جنود الملاحة

وقال وقد اقتبس من القرآن الكريم بعد أن جانس :

أسلمنى حُبّ سليماكمو إلى هوًى ، أيسره القتل
قالت لنا جند ملاحاته لما بدا ما قالت النمل
« قوموا ادخلوا مساكنكم قبل أن تحطمكم أعينه النجل » [3]

---

(١) إن فى « ما إن لك خصر » لتأكيد النفى .
(٢) الوجنة : ما علا من الخد .
(٣) مأخوذ من قوله تعالى « قالت نملة يأيها النمل أدخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده » . سورة النمل

حب النمام

وقال فى بغض أهل الهوى لأهل النميمة وتلاعب بالألفاظ :

لِمْ كــره النمامَ أهلُ الهوى! أساء إخوانى وما أحسنوا
إن كان نماما فمعكوسه من غير تكذيب لهم « مأمن »

(هـ) الغلمان :

ولهم فى حياة ابن رشيق شأن ، يذكرهم فى شعره ، ويتحدث عن معابثتهم ، وإليك بعض ما وقفنا عليه له . على أنا أمسكنا من بعضه أن نذكره قال يصف واحداً منهم :

أومأ إلىَّ

ومهفهف يحميه عن نظر الورى غيرانُ ، سكنى الموت تحت قبابه
أومى إلىَّ أنْ ائتنى فأتيته والفجر يرمُق من خلال نقابه
فلثمت خدا منه ضرّم لوعتى . . . .
. . . .
فكأن قلبي من وراء ضلوعه طربا يُخَبِّر قلبَه عما به

سورة الحمد

وله فى آخره يعوّذه بسورة الحمد :

معتدل القامة والقدّ مورَّد الوجنة والخد
لو وُضع الوردُ على خده ما عُرِف الخد من الورد
قل للذى يعجب من حسنه : اقر عليه «سورة الحمد»

وقال وناوله غلام — كانت له به صلات — تفاحة :

وتفاحةٍ من كف ظبيٍ أخذتها   جناها من الغصن الذى مثل قده
لها لمس . . . .

العمامة الحمراء

وقال فى غلام معمّ بعمامة حمراء :

يا من يمر ولا تمـ   ـر به القلوب من الفَرَق[1]
بعمامة من خده   أو خده منها استُرِق
فكأنه وكأنها   قمر تعمم بالشفق[2]
فإذا بدا وإذا انثنى   وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا   نحَ والمسامعَ والحدَق[3]

وقال فى ساقى قهوة :

قم فاسقنى قهوةً إذا انبعثت   فى باخل جاد بالذى ملّكه
كأن أيدى الرياح إذ بُسِطت   فى متنه ، أظهرت لنا حبكهُ

---

(١) الفرق : الخوف .

(٢) الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أول قدوم الليل .

(٣) الحدق جمع حدقة يريد النظر .

قال ابن خفاجة فى ديوانه : وخرجت يوماً بشاطبة إلى باب السمارين ، ابتغاء الفرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية سنة ٤٨٠ هـ . وإذا بالفقيه أبى عمران ابن أبى تليد رحمه الله ، قد سبقنى إلى ذلك فألفيته جالساً على دكان كانت هنالك مبنية لهذا الشأن فسلمت عليه ، وجلست إليه مستأنساً به ، فجرى أثناء ماتنا شدناه ذكر قول ابن رشيق « يا من يمر » الخمسة الأبيات فقلت — وقد أعجب بها جدا وأثنى عليها كثيراً — أحسن ما فى القطعة سياقة الأعداد . وإلا فأنت تراه قد استرسل ، فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذى قبله ، فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها ؛ وهل يتزل بإزاء قوله : « وإذا نطق » قوله « شغل . . الحدق » وكأنه نازعنى القول فى هذا غاية الجهد فقلت بديهاً :

ومهفهف طاوى الحشا   خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة   تليت محاسنها سور

مدار الكئوس

وله فى آخر :

بنفسى من سُكان صَبْرةَ واحد — هو الناسُ والباقون بعدُ فضولُ(١)

عزيز ، له نصفان ، ذا فى ازاره — سمين وهذا فى الوشاح نحيل(٢)

مدار كئوس اللحظ منه مكحل — ويقطف ورد الخد منه اسيل

إبليس

وقال فى إبليس وما يهيىء له من أسباب الملذة :

رأيت إبليس من مروءته — لكل مالا يطاقُ محتملا

إذا هويتُ امرءاً وأعجزنى — جاء به فى الظلام معتقلاً

تبذّلاً منه فى حوائجنا — ولا يزال الكريم مبتذلا

غلامه

وقال فى محبوبه الصائغ الذى اشتهر به وجرت له معه قصص تحدث عنها :

وظبي من بنى الكتّاب يَسبِي — قلوبَ العاشقين بمقلتيه

رفعتُ إليه أستقضى رضاه — وأسأله خلاصًا من يديه

فوقّع : قد رددت فؤاد هذا — مسامحُه فلا يُعدَى عليه

— فإذا رنا وإذا مشى — وإذا شدا وإذا سفر

فضح الغـزالة والغمامة — والحمـامة والقمـر

فحين بها استحساناً .

(١) صبرة : اسم مدينة بشمال افريقية .

(٢) الوشاح قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها . ج وشح .

(و) الرثاء :

وما كان لابن رشيق أن يخلو شعره من مراث ينشدها حين يفتقد عزيزاً ، أو يجامل ملكاً أو ولى نعمة . أو يرى حضارة وقد ذهبت أو ملكاً وقد زال – فن رثاء الأشخاص قوله ، ويبدو أنه قاله فى عزيز أحبه :

المنايا حتم

المنايا حتم فطوبى لنفس سلّمت بالرضا لحكم القضاء
لو بودى قتلت نفسى لألقا ه ولكن خشيت فوْت اللقاء

قاضى المحمدية

ومن أبيات له سبقت فى رثاء قاضى بلدة المحمدية :

أما لئن صح ما جاء البريدُ به عنه ليكثُرُن من الباكين أشياعى (١)
ما زلت أفزع من يأس إلى طمع حتّى تربَّع يأسى فوق أطماعى (٢)
فاليوم أنفق كنز العمر أجمعه لمَّا مضى واحدُ الدنيا بإجماع

المعافرى

وقال يرثى أبا إسحق إبراهيم المعافرى التونسى ، وكان شيخاً جليلا مشى فى جنازته – اعترافاً بجميله – المعز بن باديس .

يا للرزيئة فى أبى إسحق ذهب الحِمام بأنْفَسِ الأعلاق

---

(١) أشياعى : أتباعى .
(٢) غلب يأسى طمعى .

ذهب الحمام بخاشعٍ متبتل | تبكى العيونُ عليه باستحقاق
ذهب الحمام ببدر تِمٍّ لم يَدَعْ | منه الردى إلا هلالَ محاق [1]
وحوتْ جنُوب اللحدِ بحراً زاخراً | تركَ البحارَ الخضر وهى سواق [2]
فاليوم أغلق كل فهم بابَه | لما فقدنا فاتح الأغلاق
ما القيروانُ أذقتَ ثكلَكِ وحدها | قد ذاق ثكلك سائر الآفاق

ومن رثاء الدول [1]

وكان لنكبة القيروان أكبر الأثر وآلمه على نفس ابن رشيق ، فانطلق يبكى مجدها وحضارتها بنونيته الكبرى التى منها :

مرثية القيروان

كم كان فيها من كرامِ السادة | بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى | لله فى الإسرار والإعلان
ومهذبٍ جم الفضائلِ باذلٍ | لنواله ؛ ولعرضِه صوَّان
وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا | سنن الحديث ومشكل القرآن
عُلماء إن ساءلتهم كشفوا العمى | بفقاهة وفصاحة وبيان
وإذا الأمورُ استبهمت واستغلقت | أبوابُها وتنازع الخصمان
حلوا غوامض كل أمر مشكل | بدليل حق واضح البرهان

---

(١) بدر التم القمر فى أوج اكتماله ، والمحاق القمر فى آخر الشهر .

(٢) سواق . ساقية .

(٣) رثاء الدول باب معروف فى الشعر العربى لا سيما فى المغرب والأندلس وقد جلّى فى هذا الباب ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب ومحمد بن عمارة اليمنى وغيرهم من الشعراء ولعل ابن رشيق لا يقل عن أحدهم بقصيدته هذه المعارضة بقصيدة :

لكل شىء إذا ما تم نقصان | فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول | من سره زمن ساءته أزمان

* * *

هجروا المضاجع قانتين لربهم طلبا لخير معرّس ومعان
وإذا دجا الليلُ البهيمُ رأيتهم متبتلين تبتــلَ الرهبان
فى جنة الفردوس أكرم منزل بين الحسانِ الحور والغلمان
تجروا بها الفردوسَ من أرباحهم نعم التجارةُ ، طاعةُ الرحمن
المتقين اللهَ حــقَّ تُقَاته والعارفين مكايد الشيطــان

* * *

وترى جبابرةَ الملوك لديهمُ خُضُعَ الرقاب نواكسَ الأذقان
لا يستطيعون الكلامَ مهابةً إلا إشــارةَ أعين وبنان
خافوا الإلهَ فخافهم كلُّ الورى حتى ضراءُ الأسد فى الغيران
تنسيك هيبتُهُم شماخة كل ذى مُلْكٍ وهيبةَ كل ذى سلطان
أحلامهم تزن الجبالَ وفضلهم كالشمس لا تَخفى بكل مكان
كانت تعد القيروانُ بهم إذا عُدَّ المنابر زهرةَ البلــدان
وزهت على مصرٍ وحُقَّ لها كما تزهو بهم وغدت على بغدان(١)

* * *

حسنت فلما إذْ تكامل حسنها وسما إليها كل طرف ران
وتجمعت فيها الفضائل كلُّها وغدت محل الأمن والإيمان
نظرت لها الأيام نظرة كاشحٍ ترنو بنظرة كاشح معيــان
حتى إذا الأقدار حُمَّ وقوعها ودنا القضاءُ لمدة وأوان
أهدت لها فتنا كليل مظلم وأرادها كالناطح العيدان (١)

---

(١) كذا فى الأصل — وبغدان لغة فى بغداد .

(٢) المعيان من العين بمعنى الحاسد ، الشديد الإصابة بالعين .

(٣) « العيدان » كذا فى الأصل ، ولعلها الملوان : الليل والنهار .

بعصائب من فادع وأشائب ممن تجمع من بنى دهمان(١)
فتكوا بأمة أحمد ، أتراهمُ أمِنــوا عقاب الله فى رمضان
نقضوا العهود المبرمات وأخفروا ذممَ الإله ولم يفوا بضمان
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا سَبْىَ الحريم وكَشْفَةَ النِّسوان
ساموهم سوء العذاب وأظهروا متعسفين كوامن الأضغان(٢)
والمسلمون مقسَّمون تنالهــم أيدى العصاة بذلة وهوان
ما بين مصْطرع وبين معذب ومقتل ظلما وآخرَ عان(٣)
يستصرخون فلا يغاث صريخهم حتى إذا سئموا من الإرنان(٤)
بادَوا نفوسَهم فلما أنقــذوا ما جمعُوا من صامت وصوان
واستخلصوا من جوهر وملابس وطرائفً وذخائر وأوان(٥)
خرجوا حفاةً عائذين بربهم من خوفهم ومصائب الألوان

* * *

هربوا بكُل وليــدةٍ وفطيمة وبكل أرملةٍ وكل حَصَان(٦)
وبكل بِكر كالمهاةً غريرة تَسْبى العقولَ بطرفها الفتان(٧)
خــود مبتلةِ الوشاح كأنها قمر يلوح على قضيب البان(٨)

* * *

(١) الأشائب جمع أشابة والأشابة أخلاط الناس ، ويقصد ابن رشيق أن قد أغار عليها الدهما والعامة والأخلاط .

(٢) كوامن ج . كامن وهو الخفى .

(٣) عان : العانى ، الأسير .

(٤) الإرنان : النشاط .

(٥) أوان : ج إناء وأصلها أوانى .

(٦) المرأة الحصان : العفيفة والعفيفة بالزواج .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية نصع بياضها .

(٨) الخود : الصبية فى مقتبل العمر .

والمسجدُ المعمورُ جامع عقبة ... خرب المعاطن مظلم الأركان (١)
قفر فما تغشاه – بعد – جماعةٌ ... لصلاة خَمس، لا ولا لأذان
بيت به عُبد الإله وبُطلَتْ ... بعد الغلو عبادة الأوثـان
بيت بوحى الله كان بناؤه ... نعم البنا والمبْتَنَى والبانى
أعظِمْ بتلك مصيبةً ما تنجلى ... حسراتُها أو ينقضى الملوان (٢)
لو أن ثهلانا أصيب بعشرها ... لتدكدكت منها ذرى ثهلان (٣)

* * *

حزنت لها كُوَرُ العراق بأسرها ... وقرى الشآم ومصرَ والخرسان (٤)
وتزعزعت لمصابها وتنكدت ... أسفًا بلاد الهنـد والسندان
وعفا من الأقطار بعد خلائهـا ... ما بين أندلس إلى حلـوان
وأرى النجوم طلعن غير زواهر ... فى أفقهن وأظلم القمران (٥)
وأرى الجبال الشمَّ أمست خشَّعاً ... لمصابها وتزعزع الثقلان (٦)
والأرض من وله بها قد أصبحت ... بعـد القرار شديدةَ الميلان
أترى الليالى بعد ما صنعت بنا ... تقضى لنا بتواصل وتدان
وتعيد أرض القيروان كعهدها ... فيما مضى من سالف الأزمان
من بعد ما سلبت نضائر حسنها الـ ... أيام واختلفت بهـا ميتان (٧)
وغدت كأن لم تغن قطُّ ولم تكن ... حرما عزيز النصر غير مهان (٨)
أمست وقد لعب الزمان بأهلها ... وتقطعت بهمُ عُرا الأقران

---

(١) جامع عقبة : هو عقبة بن نافع فاتح تلك البلاد أول دخول الإسلام فيها .
(٢) الملوان : الليل والنهار .
(٣) ثهلان : جبل مشهور يضرب به العرب المثل فى العظم .
(٤) يدل البيت على تضامن البلاد العربية قديماً .
(٥) القمران : الشمس والقمر من باب التغليب كما يقولون « العمران » يعنون عمر وأبا بكر .
(٦) الثقلان : الإنس والجن .
(٧) كذا فى الأصل .
(٨) كأن لم تغن : تزدهر والتعبير مأخوذ من القرآن « كأن لم تغن بالأمس » .

فتفرقوا أيدى سبا وتشتتوا ... بعـد اجتماعهم على الأوطان

وقد شاع رثاء الدول فى المغرب والأندلس وقصيدة لسان الدين بن الخطيب أشهر من أن نوردها .

* * *

ز ـــ الشكوى :

وشاعر كابن رشيق عاش بين الحساد والمنافسين ، ولاقى من عنت الأيام كما لاقى من نعمائها لا يخلو شعره من شكوى . فن ذلك : قوله يشكو حرفة الأدب :

حرفة الأدب

أشقى لعقلك أن تكون أديباً ... أو أن يرى فيك الورى تهذيبا

ما دمت مستويا ففعلك كله ... عِوجٌ وإن أخطأت كنت مصيبا

كالنقش ليس يصح معنى خَتْمهِ ... حتى يكون بناؤه مقلوبا

التأسى

وقال يشكو التعزى والتأسى ، وأنهما لا يذهبان بالأسى وإنما يجلبانه ويثيران أسبابه .

رأيت التعزىَ ممـــا يهيج ... على المـرء ساكن أوصابه (١)

وما نال ذو أسْوة سـلوةً ... ولكـن أتى الحزنَ من بابه

تفكــر فى مثـل أرزائه ... فذكــرهُ ما بـه ما بــه(٢)

---

(١) أوصاب : جمع وصب وهو المرض والوجع الدائم ونحول الجسم .

(٢) الأرزاء جمع رزء وهو المصاب ينزل بالمرء وفى البيت جناس تام كقول القائل :

عضنا الدهــر بنـــابه ... ليت ماحــل بنـا به

ليلة قصيرة

وله يشكو انصرام الليل وسرعة إقبال الصباح لعلة ذكرها :

أيها الليل طر بغير جنــاح ليس للعين راحة فى الصباح [١]
كيف لا أبغض الصَّباح وفيــه بان عنى أولو الوجوه الصِّباح [٢]

بعوضة

وقال يشكو البعوض :

يا رب لا أقوى على دفع الأذى وبك استعنت على الضعيف المؤذى
مالى بعثتَ إلىَّ ألفَ بعوضــة وبعثتَ واحدةً إلى نمروذ ؟

شكوى الزمان

وله فى شكوى الزمان والتصبر :

ما أنت يا دهــرُ بالأهوال تفجعُنا
إلا كمن يقــرِعُ الجلمودَ بالخزف [٣]
إن كنت نتَ لسيف الغدر مُنْتَضِياً
فإنــنى من جميل الصــبر فى كنف

جفوة

وقال يشكو بعض الغلمان ، وذلك أنه كان لمحمد بن حبيب التنوخى معشوق لا يزال يزوره إذا إذا غاب عن منزله ، فإذا حضر لم يأته وكثر ذلك بينهما ، فدعا ابن رشيق يوماً ، وقال له : تعال نصنع فى ذلك المعنى ، فصنع الأبيات على لسان محمد وهى :

ما بالنا نُجفى فلا نُوصَل إلا خلافًا مثل ما تفعل

---

(١) يطلب إلى الليل ألا ينقضى ليستمتع فيه كثيراً « طير بغير جناح » .
(٢) الصباح : جمع صبيح وهو المليح .
(٣) مأخوذ معناه من قول الآخر :
كناطح صخرة يوماً ليوهنها فــلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

تأتى إذا غبنا ، فإن لم نغب جعلتَ لا تأتى ولا تسأل

كهاجرٍ أحبابَه ، زائرٍ أطلالهم بعد أن يرحلوا

صحبة الناس

وقال يشكو بعض معاصريه :

من يصحب الناس مطويًّا على دَخَلٍ
لا يصحَبوه فخلّوا كل تدخيل

لا تستطيعوا على ضَعْفى بقوتكم
إن البعوضةَ قد تعدو على الفيل

وجانبوا المزح ، إن الجدّ يتبعه
ورب موجعة فى إثر تَقْبيل

يا قوم لا يُلقينَنِيَ منكم أحد
فى المهلكات فإنى غير مغلول

(ح) التعريض والهجاء :

وقد أسبقنا أنه كان أبعد الناس عن هجاء ، وكثر ما دعا الشعراء إلى عدم التعرض لما يجلب عداوات الناس . ولذا جاء ما جاء له فى هذا الباب وأكثره تعريض لا يعرف التصريح إلا قليلا . وذلك قوله يعرض بكاتب رد أمر محمد بن هرون :

تعريض بكاتب ابن هرون

أرى بعض من أنت صيرّتَه من الناس ، يَعْروك تعييرُه

---

(١) الأطلال جمع طلل وهو ما بقى من آثار الديار بعد هجرها .
(٢) الدخل . الغش ، وانطوى على دخل ضم صدره عليه .

تُنافِسُ أفعالَكَ أفعالُه ويُنقِصُ جاهَكَ تأثيره
كما كسفَ الشمسَ بدر الدجى وإن كان من نورها نـورُهُ

اعتداء

وقال ابن رشيق : كنت أميل إلى قينة اسمها ليلى ، فعشقها بعض خدام الحصون ، وكان يحسب خدمتها وكنسها لمنزله لا يثلم جاه متوليها ، فنهيته ، فلما لم ينته قلت فيه :

ظن أن الحصونَ ملكُ سليما ن وليلى بجهله بلقيسا
وله فى العصا مآرب أخرى حاش لله أن تكون لموسى

البرغوث

وقال فى شخص هجاه :

يا موجعى شتمًا على أنه لوْ فرَكَ البرغوثَ ما أوجعنا
كل لـه من نفسه آفةٌ وآفـة النحلةِ أن تلسعا

مغتاب

وقال فيه أو فى مثله :

وأخرقَ أكالٍ للحم صديقه وليس لجارى ريقه بمسيغ
سكت له ضنًّا بعرضى فلم أجب ورب جواب فى السكوت بليغ

ط — العتاب :

وهو من الهجاء بسبب ، ولذلك قل فى شعره كما قل هذا الهجاء الذى كان يتحاشاه ؛ فمن ذلك قوله يعاتب القاضى جعفر بن عبد الله الكوفى بقصيدة طويلة هذه أبيات منها :

عتاب القاضى جعفر

وقد كنت لا آتى إليك مخاتلاً ... لديك ولا أثنى عليك تصنعاً (١)

ولكن رأيت المدح فيك فريضة ... علىّ إذا كان المديح تطوعـاً

فقمت بما لم يخف عنك مكانه ... من القول حتّى ضاق مما توسعا

ولو غيرُك الموسومُ عنى بريبة ... لأعطيت منها مدعى القوم ما ادعى (٢)

فلا تتخالجك الظنونُ فإنها ... مآثمُ ، واتركْ فى للصنع موضعا (٣)

فوالله ما طولت باللوم فيكمُ ... لسانـًا ولا عرضت للذم مسمعا

ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوتْ ... حبالى ولا ولّى ثنائى مودّعا

بلى ، ربما أكرمتُ نفسى فلم تَهُنْ ... وأجللتها عن أن تذل وتخضَعا

ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن ... ثقيلاً على الإخوان كَلاًّ مُدفّعا (٤)

فباينتُ لا أن العداوة باينت ... وقاطعتُ لا أن الوفاء تقطعا

ألوذُ بأكناف الرجاء وأتقى ... شماتَ العدى إن لم أجد فيك مطمعا (٥)

---

(١) المخاتل : المخادع والمخاتلة : الخداع .

(٢) الريبة : ما يريب من عمل أو سلوك .

(٣) تتخالجك : تتجاذبك .

(٤) الكل : العبء .

(٥) ألوذ : أحتمى .

تلطف

وقال ورق حديثاً :

أراك اتهمتَ أخاك الثقة وعندك مقتٌ وعندي مِقة(١)
وأثني عليك وقد سؤتني كما طيب العودُ من أحرقه

رجاء

وقال يعتب بعد يأس استحكم :

رجوتك للأمر المهم وفى أيدى بقايا أمنى النفس فيها الأمانيا
فساوفتَ بِي الأيامَ حتّى إذا انقضت
أواخرُ ما عندى قطعتُ رجائيا(٢)
وكنت كأنى نازفُ البئرِ طالبا
لِاجمامِها ، أو يرجع الماءُ صافيا
فلا هو أبقى أما أصابَ لنفسه
ولا هى أعطتْه الذى كان راجيا

ى ـــ المدائح :

ونحن نعلم أن ابن رشيق عاش حياته للمعز بن باديس ، ولابن أبي الرجال وزيره وكاتبه ، ثم لتميم بن المعز ، ومع ذلك فما وصل إلينا من شعر المدح عنده لا يتكافأ وهذه الحياة الحافلة الطويلة ، ولكن لعله ضاع فى غمار ما ضاع من آثاره . وإليك بعض ما وقفنا عليه فى هذا الباب. قال يخاطب واحداً من ممدوحيه لم نعرف شخصه :

---

(١) المقة : الحب وتوافق الرجلان : تحابا .

(٢) ساوفت وسوفت بمعنى .

يراعة ومداد

كتبت ولو أننى أستطيعُ لإجلال قدرك دون البشر
قددتُ اليراعةَ من أعظُمى وكان المدادُ سوادَ البصر

لدن الرماح

وقال يمدح المعز من قصيدته التى دخل بها فى خدمته فلزم الديوان وأخذ الصلات :

لُدْنُ الرماحِ لما يسقى أسنتها من مهجة القَيْل من ثُغرة البطل (١)
لو أثمرت من دم الأعداء سُمْرقَنَا لأورقتْ عنده سُمْر القنا الذبل (٢)
إذا توجه فى أولى كتائبه لم تفرِق العينُ بين السهل والجبل
فالجيش ينفض حوليه أسنته نفض العقاب جناحيه من البلل (٣)
يأتى الأمور على رفق وفى دعة عجــلان كالفلك الدوار فى مهل

رايات

وله فيه

وكأنما راياتُه مشهورةً يوم اقتحامه
أبدًا تشير إلى العدو بسلمه أو بانهزامه (٤)

وثن الملاحة

وله فيه كذلك :

ذمت لعينك أعين الغزلان قمر أقر لحسنه القمران

(١) القيل : لقب السادة والملوك من حمير .

(٢) القنا الذبل : صفة جودة فى الرماح . ج . ذابلة .

(٣) العقاب : طائر من الجوارح يطلق على الذكر والأنثى .

(٤) بسلمه : بانتصاره وسلامته .

ومشت ، ولا والله ماحِقفُ النَّقا ‏ ‏ ‏ مما أرتْكَ ولا قضيبُ البان[١]

وثنُ الملاحةِ غير أن ديانتى ‏ ‏ ‏ تأبى على عبادةَ الأوثان

يا بن الأعزة من أكابر حمير ‏ ‏ ‏ وسلالةِ الأملاك من قحطان

من كل أبلجَ آمرٍ بلسانه ‏ ‏ ‏ يضع السيوفَ مواضع التيجان[٢]

ك ــ الخمر :

وبرغم ما يبدو من ولوعه بها فى بعض ما يقول فإن ما وصل إلينا عنه فيها نزر يسير لا يسمح باعتباره من أصحاب الخمريات ، وهاك بعض ما قال : قال من خمرية لم أعثر منها على غير هذه الأبيات

من خمرية

قَدْر المدامة فوق قدر الماء ‏ ‏ ‏ فارغَبْ بكأسك عن سوى الأكفاء[٣]

مالى ومزجَ الراح إلا فى فمى ‏ ‏ ‏ بالريق من فم غادة حسناء[٤]

ذاك المزاج وإن تعدانى الذى ‏ ‏ ‏ فى المُزْنِ من ذى رقة وصفاء

أشهى وأبلغُ فى الفؤاد مسرةً ‏ ‏ ‏ من غيره وأدبُ فى الأعضاء

لى الصِّرْفُ إن فرح النديمُ ولم أكن ‏ ‏ ‏ مستأثراً فيها عن الندماء[٥]

كما جاء بها ربها

وقال :

قلت لمن ناولنى مُرةً ‏ ‏ ‏ ما بى حب الغيد بل حبها[٦]

---

(١) الحقف : ما أعوج من الرمل .

(٢) البلجة : البياض .

(٣) الاكفاء: ج كفء وهو الند المماثل .

(٤) الراح : الخمر .

(٥) الصرف : الخالصة من المزج .

(٦) الغيد : ج غادة . وهى الفتاة الحسناء .

لا تسقنى الراح ممزوجة   واشرب فما يمكننى شربها
ما راحتى فى الراح إن غيرت   دعنى كما جاء بها ربها

معتقة

وقال :

معتقة يعلو الحبابُ متونها   فتحسبُه فيها نثير جُمان[١]
رأت من لجين راحةً لمديرها   فطافت له من عسجدٍ ببنان[٢]

ل ــ الشيب :

وهو باب طرقه الشعراء بين راض عنه ، وساخط عليه ، ومما قاله فيه ابن رشيق :

بلق الغراب

وإن لم تعجبى ببياض شَعر   فلا تستغربى بَلَقَ الغراب[٣]
تعافين المشيبَ وليس هذا   ولكن هذه شِيةُ الشباب[٤]

الشيب أوفى من الشباب

وقال أيضاً :

أراك للشيب ذا اكتئاب   فأين تمضى عن الصواب
إن كنت ترعى الوفاء حقا   فالشيبُ أوفى من الشباب

---

(١) الجمان : اللؤلؤ واحدته جمانة .
(٢) اللجين الفضة ، والعسجد الذهب وكلاهما فى البيت على التشبيه .
(٣) بلق الغراب : بياضه فى سواده .
(٤) عاف الشيء : إذا كرهه .

م — التوبة :

وهذا باب قال فيه ابن رشيق، وكأنما أحس بما فرط في حق نفسه وفي جنب الله فراح يستغفر الله مما قدم؛ فمن ذلك قوله يظهر الندم على ما فات :

دعاء ورجاء

إذا أتى اللهُ يوم الحشر في ظُلَلٍ   وجيء بالأمم الماضين والرسل
وحاسب الخلقَ من أحصى بقدرته   أنفاسهم وتوفاهم إلى أجل
ولم أجد في كتابي غير سيئة   تسوؤني وعسى الإسلامُ يسلم لي
رجوتُ رحمة ربي وهي واسعة   ورحمة الله أرجى لي من العمل

المراجع

١ ــ الذخيرة　　　　ابن بسام
مصور عن مخطوط الجزائر الرباط بمكتبة جامعة القاهرة

٢ ــ رايات المبرزين　　　　مجهول المؤلف
مكتبة الأزهر (مخطوط)

٣ ــ مسالك الأبصار　　　　ابن فضل الله العمرى
مصور عن مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ

٤ ــ ابن رشيق　　　　للميمنى
السلفيه ١٣٤٣ هـ .

٥ ــ اعلام الكلام　　　　ابن سرف
الخانجى ١٩٢٦ م .

٦ ــ بساط العقيق　　　　حسن حسنى عبد الوهاب باشا
تونس ١٣٣٠ هـ .

٧ ــ تيارات أدبيه　　　　ابراهيم سلامه
الانجلو ١٩٥٤ م .

٨ ــ الحركة الفكرية فى مصر　　　　عبد اللطيف حمزة
دار الفكر العربى الطبعة الأولى

٩ ــ زهرات منثورة فى الأدب العربى عبد الله عفيفى
الحلبى ١٩٣٢

١٠ ــ شذرات الذهب　　　　ابن العماد الحنبلى
القدسى ١٣٥١ هـ .

١١ ـ صبح الأعشى — القلقشندى
دار الكتب المصرية
١٢ ـ ظهر الاسلام — أحمد أمين
لجنة التأليف ١٩٤٥ م
١٣ ـ العمدة — ابن رشيق
التجارية
١٤ ـ قراضة الذهب — ابن رشيق
الفتح
١٥ ـ العربية — يوهان فك
ترجمة محمد عبد الله دراز
١٦ ـ فتح العرب للمغرب — حسين مؤنس
الآداب بالجماميز
١٧ ـ الكامل فى التاريخ — ابن الأثير
الأميرية ١٢٩٠ هـ .
١٨ ـ كشف الظنون — ملا كاتب جلبى
الأميرية
١٩ ـ مسالك الأبصار — الأصطخرى الكرخى
ليدن ١٨٧٠
٢٠ ـ المسلمون فى جزيرة صقلية — أحمد توفيق المغربى
المطبعة العربية بالجزائر ١٣٦٥ هـ .
٢١ ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب — الواحدى
مطبعة الاستقامة
٢٢ ـ معجم البلدان — ياقوت
مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ .

٢٣ ــ معجم الأدباء — ياقوت
دار المأمون

٢٤ ــ معجم المطبوعات — يوسف سركيس
مطبعة مصر

٢٥ ــ مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون
المطبعة الشرفية ١٣٢٧ هـ .

٢٦ ــ منهل الوراد فى علم الانتقاد — قسطاكى الحمصى

٢٧ ــ النقد المنهجى عند العرب — مندور
النهضة .

٢٨ ــ وفيات الأعيان — ابن خلكان
دار المأمون .

فهرست

الفصل الأول

عصر ابن رشيق

الفصل الثانى

ابن رشيق فى عصره

الفصل الثالث

جوانب ابن رشيق

الفصل الرابع
منتخبات من آثار ابن رشيق

صفحة

ب — الملح والنوادر

حـ — الحكمة

د ـ الغزل

صفحة

هـ ـ الغلمان

و ـ الرثاء

ز ــ الشكوى

ح ــ التعريض والهجاء

ط ــ العتاب

ى ــ المدائح

ك ـ الخمر

ل ـ الشيب

م ـ التوبة

رقم الإيداع	١٩٨٣/٣٠٢٥
الترقيم الدولى	٥-٠٤٧٦-٠٢-٩٧٧ ISBN

١/٨٢/١٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مجموعة نوابغ الفكر العربى

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربى فى جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربى فى العصر الحاضر من كل قطر وبلد ؛ فهى تعنى بالشعراء والكتاب ، كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ. وقد رأت دار المعارف أن تعهد فى كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه، فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعانى مبين الأغراض .

● اقرأ فيها :

١ – ابن رشد . ٢ – الجاحظ . ٣ – الشيخ نجيب الحداد . ٤ – محمود سامى البارودى . ٥ – ابن زيدون . ٦ – الشيخ ناصيف اليازجى . ٧ – إخوان الصفا . ٨ – بشار بن برد . ٩ – بديع الزمان الهمذانى . ١٠ – أبو الفرج الأصبهانى . ١١ – ابن الرومى . ١٢ – الفرزدق . ١٣ – السهروردى . ١٤ – الشيخ إبراهيم اليازجى . ١٥ – المتنبى . ١٦ – البحترى . ١٧ – الخنساء . ١٨ – ابن قتيبة . ١٩ – جرير . ٢٠ – ابن المقفع . ٢١ – أبو حيان التوحيدى . ٢٢ – ابن سينا . ٢٣ – عبد الرحمن الكواكبى . ٢٤ – رفاعة رافع الطهطاوى . ٢٥ – خليل مطران . ٢٦ – ولى الدين يكن . ٢٧ – صفى الدين الحلى . ٢٨ – البهاء زهير . ٢٩ – جمال الدين الأفغانى . ٣٠ – تقى الدين بن حجة الحموى . ٣١ – الفارابى . ٣٢ – ابن رشيق القيروانى . ٣٣ – القاضى الجرجانى . ٣٤ – حسان ابن ثابت . ٣٥ – قاسم أمين . ٣٦ – ضياء الدين بن الأثير . ٣٧ – يعقوب صروف . ٣٨ – المسعودى . ٣٩ – أمين الريحانى . ...حسن العطار . ٤١ – الشريف الرضى .

٨٥٢٠/٠٢